مكتبة ياسمين

هُدَى بَرَكات

سَيِّدِي وَحَبِيبِي

The Man Booker International Prize 2015 Finalist

رواية

سيّدي وحبيبي

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

سيّدي وحبيبي

هدى بركات / روائيّة لبنانيّة

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2016
ISBN 978-9953-89-503-1

telegram
@yasmeenbook

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

هدى بركات

سيّدي وحبيبي

telegram
@yasmeenbook

دار الآداب ـ بيروت

أحببته حبًّا لا يوصف. ليس بسبب أنّي لا أحسن الوصف، أو بسبب عدم قدرتي على الكلام والاستفاضة فيه حين يتعلّق الأمر بي، بداخلي ومشاعري، بل لأنّ ذلك الحبّ يبقى غامضًا، لم أسمع أحدًا يتحدّث بمثله.

حين أفكّر فيه ويحضرني وجهه الأسمر الجميل أشعر بسعادة غامرة. أشعر بالعرفان الكبير لأنّ الله وضعه على طريقي في اللحظة التي كنت فيها يائسًا. يائسًا من الحياة والبشر. هذا الرجل اشتراني، أقول في نفسي، وأنا أتذكّر أمّي التي، حين كان يشتدّ عليها المرض، كانت تنظر إلى أبي وإلى من كان حاضرًا من الجيران لإعانته في حملها إلى السيّارة التي ستقلّها إلى المستشفى، أمّي التي كانت تقول بعين كسيرة: دخيل الله اشتروني يا جماعة.. اشتريني يا أبو وديع.

وأنا على البلكون، أسمع الجلبة الخفيفة التي تحدثها زوجتي في المطبخ، أروح أتساءل عمّا هي السعادة. ماذا تكون غير ذلك الشعور

بالألفة والهناء. أن تحبّ زوجتك وأن يكون لك أخ وصديق يخلص لك وتخلص له. وهو اليوم قادم للعشاء.

يروي الناس كثيرًا عن حبّ ذوي القربى، هؤلاء الذين تربطنا بهم صلات الدم أو الرحم. ويروي الناس عن حبّ الرجال للنساء، أو حتى عن عشق الرجال للرجال. لكنّ الأمر لم يكن كذلك. وهو يذهب أبعد ممّا سمعته وعرفته عن روابط الصداقة أيضًا، فأنا ممّن قامت حياتهم، في جلّ مراحلها، على عرى الصداقة، ربّما بسبب أنّي ولد وحيد لا إخوة لي، وربّما بسبب أنّي لم أترعرع في كنف عائلة كبيرة فيها الأعمام والأخوال، العمّات والخالات، والأولاد الكثيرون.

في بداية معرفتي به، كنت لا أكفّ عن الكلام عنه. ولولا زوجتي التي عادت تنير حياتي لأشكل الأمر عليّ، ولاعتقدت أنّ بي غرامًا لذلك الشابّ. وسامية، زوجتي تكرّر ساخرة أنّها، لولا اشتداد شهوتي وارتفاع وتيرة مداعباتي الفظّة، كما تصفها متدلّلة عليّ، لشكّت في أن يكون تعلُّقي به بداية رحيل إلى الضفّة الأخرى من الرغبات. وسامية، المطمئنّة كثيرًا إلى شهوتي إليها، صارت تتحدّث عن خطورة وقوعها هي في حبّه عن بعد، كما في أفلام السينما، حيث تعشق الأذن قبل العين. لكنّي لا أغار منه عليها. لا يمكن أن أغار منه في أيّ شيء.

وأنا لا أقارن بين الحبّين، حتى حين تتّهمني زوجتي بأنّي أحبّه أكثر منها. فأنا، أعترف أنّ سيّدي الشابّ يشغل فكري وقلبي، لكنّي أحبّه حبًّا نبيلاً، راقيًا، ساميًا، وليس ذلك الحبّ الذي يُشعر المرء بالخجل من نفسه وهو يستفيق مبلولاً بسوائله اللزجة، شارد الذهن في تأمّل الفراغ الكئيب من نوافذ مطلّة على ربيع سندسيّ أو قمر حزين حين لا يكون بقرب حبيبه. فأنا، حتى بعيدًا عنه، أبقى سعيدًا به هانئًا، مطمئنًّا لوجوده في حياتي. وأخجل من نفسي حين يساورني شيء من الخوف

وأشكّك في دوام إخلاصه لي. وأخجل إذّاك من سذاجة تداهمني وأنا أغنّي مع عبد الحليم: «أنا لك على طووووول خلّيك ليَّ... إبعت لي سلاام، قول أيّ كلاام، من قلبك أو من ورا قلبك..» ثم أنتبه إلى أنّ ذلك الرجل، أعادني في الحقيقة إلى عبد الحليم، إلى أيّام عبد الحليم، أي إلى مراهقتي التي كرهتها، وأضعتها. فأقول في نفسي إنّي سعيد لذلك، وأنّها ليست سذاجة يخجل بها المرء في عمر كالذي وصلت إليه.

لا ينتبه المرء، في ضجيج وفوضى الأيّام المتعاقبة، في انتظامها أو خللها، إلى ما يصيبه من تغيير. يكون ساهيًا لاهيًا في فواصل الحياة وتفاصيلها، فيعتقد أن لا معنى للتشويش والبلبلة، أو للإيقاع المموسق، المتناسق والمنضبط. كأنّ الحياة تسير هكذا، في سلسلة من المحطّات المتنافرة غير المترابطة، يدفعها القدر الأعمى جزافًا وبلا هدف، ومن مصادفات تشبه المطبّات تتدحرج عليها حياة المرء. حروف مدلوقة على الورق تقع في كلمات أو لا تقع. في جمل تُقرأ أو لا تُقرأ. ليس الأمر كذلك.

لكن حياة المرء تكتسي المعنى في غفلة منه. وقد يغفل عن معنى حياته طيلة عمره.

وقد ينتبه إليه كأنْ فجأة. كثلج خفيف لا تراه هابطًا بصمت. وفي الصباح يكون العالم كلّه أبيض.

أعرف أنّي لا أُحسن الكلام. هذا لا يعني أنّي لست كثير الكلام في بعض الأحيان. في بعض الأحيان أصير ثرثارًا.

حين تعرَّفت عليه، في البداية، كنت أظلّ صامتًا. أصمت مرتبكًا. لا أجد كلامًا مناسبًا. أُقنع نفسي، حين أخرج من مكتبه، بأنّ صمتي هو من باب اللياقة والتهذيب، وأنّه لا بدّ يرى الأمر كذلك بما أنّه يستمرّ في الابتسام لي.. ولعلّي أحسن في الاستماع وعدم الكلام لأُفسح له، إذ لا يبدو الجوّ مثقلاً بالصمت أو الحرج حتى حين نكون نحن الاثنين لوحدنا.

ففي البداية، كنت مقتنعًا بأنّه يجدر بي أن أصمت إلّا عن بعض الكلمات القليلة المتوجِّبة لأتعرَّف إليه. وهو كان يساعدني في ملء الفراغات، إذ كانت تحرُّكاته في المكتب، في مكتبه الجديد، تجعل تلك الدقائق الصامتة أقلّ وطأة. كان ينقِّل نظره بين أزرار الهواتف الكثيرة على طاولة المكتب حينًا، وحينًا ينقف فأرة الكومبيوتر على شماله ليُعيد

إضاءة الشاشة التي يتفحّصها باهتمام.. قبل أن ينتقل إلى «الريموت كونترول» لتغيير قناة التلفزيون الصامت.. أو إلى طابعة الفاكس ليقول مرّة أخرى: لا شيء جديد.

كنت أطمئنّ إلى ارتباكه الخفيف في مكانه الجديد. كان ذلك يقرّبه منّي قليلاً، فلا أشعر منه بالقوّة. تلك القوّة التي ترشح من أجسام الرجال وراء المكاتب الكبيرة. قوّة تأخذك مرّة واحدة، وتعطّل جسمك كلّه بأسرع ممّا يفعله المخدّر، أقوى مخدّر. قوّة تسقط على قلبك كقبضة مخالب نسر عظيم. قبل أن يتكلّم السيّد يبدأ الرعب. ويتعاظم الرعب لأنّك تعرف مسبقًا أنّك، مرتعبًا، لم تفهم ما يقول. ولأنّ ما سيقول شديد الأهمِّيَّة فأنت لن تسمع. طنين قويّ، يُشبه كثيرًا ذلك الذي يلي دويّ انفجار هائل، وفراغًا في الرأس.

عرفته ذلك الرعب، لكنّي لم أتعوّده. لم أستطع تدجينه. ربّما بسبب أنّي لم أشعر يومًا بالخوف من أبي أو من أمّي حين كنت صغيرًا أو حتى مراهقًا في البيت.

كنت متوتّرًا مشدودًا حين التقيته في مكتبه أوّل مرّة. كفّاي متعرّقتان وقلبي يضرب بقوّة. لم أكن أتوقّع أن يمدّ يده ليسلِّم عليّ. هزّ يدي مرارًا ليشعرني ربّما بأنّه لم يقرف من تعرُّق يدي. هزّ يدي مرارًا ليشعرني أنّه سيّد من نوع آخر، يسلِّم على موظَّفيه بطريقة مختلفة غير متعالية. صحيح أنّ ذلك هدّأ من روعي قليلاً، إلّا أنّي حين استرجعت سلامه أنّبت نفسي على تفاؤلي السريع. تذكّرت أنّ الزعماء يسلّمون باليد على صغار القوم من المحازبين أيضًا. قلت إنّه لن يسلّم عليّ مرّة ثانية باليد، وعليّ ألّا أجازف بمدّ يدي بسرعة قبل أن يفعل.. وهو حتمًا لن يفعل... وقرّرت أنْ لا خير في ذلك.

بقيت، طيلة عطلة نهاية الأسبوع، أتفكّر في هذا اللقاء الأوّل.

أسترجع كافّة التفاصيل الصغيرة. . كانت التفاصيل الصغيرة التي تحضرني تبدو وقد ولدت في رأسي للتوّ. . . أتذكّر أشياء لم ألحظها مطلقًا أو أنّي لم أعرف أنّي لحَظْتَها. تنبت في رأسي هكذا فجأة. استرجعت تفاصيل المكتب الجديد، ألوان الطلاء على الجدران وحفيف الموكيت الجديدة وزخرفة السجاجيد الصغيرة الحمراء فوقها. استرجعت أيضًا تعرُّجات عروق الخشب على طاولة المكتب الجديد اللامع. واستحسنت خيار تنسيق وفرش المكتب الجديد. فالقديم كان يوحي بالثقل والغَلَظة. كان قليل الإضاءة والنور. فقط كان الرجل الضخم يضيء المصباح القصير الساق على مكتبه لينعكس نوره من زجاج الطاولة على ملامح وجهه الكبير الغارق في عتمة الغرفة. لإرهابنا. لإرهابي. لمزيد من إرهابي. مع أنّي لم ألتقِ به بالفعل وجهًا لوجه سوى مرّتين اثنتين!

الدم الذي كان يجري في عروقي أفسده ذلك الرجل القديم إلى آخر قطرة. . . وربّما مات من شدّة كراهيّتي له. من شدّة كراهيّتي له توقّف الدم في دماغه، وهو في نوبة ضحك عارمة على مائدة عشاء مع أصحابه الكثيرين. أخبرنا بذلك أحد الموظَّفين نقلاً عن قريب له، سائق وزير، كان حاضرًا عشاء تلك الليلة.

كان قصير القامة له وجه كوجوه الأطفال... ومثلي له ثديان صغيران. ليس السيّد الشابّ من أصحاب الهيبة... له مثلي أيضًا كرش صغير، لكنّه يبدو ضائقًا به.. يبتلعه حين يمشي أو يخفيه تحت الثياب السبور الواسعة.

ليس من أصحاب الهيبة وربطات العنق، كما كان يحبّ أن يردّد. وأنا في البداية بقيت على تحفُّظي قائلاً في نفسي إنّ هذا التواضع ربّما يكون كاذبًا، ليست الهيبة في ربطات العنق فقط... فالأيّام قد تغيّرت ومسؤولو العسكر، وحتى الزعماء منهم ومخطّطو السياسة وراء المكاتب الكبيرة، لا يرتدون ربطات العنق. لم يعودوا كذلك.. بقيت على تحفُّظي، رغم أنّه كان، في كلّ مرّة يلتقي بي داخل مكتبه أو في الأروقة، يسلّم عليَّ باليد ويطيل إمساك يدي في يده.

لم أعد أذكر جيِّدًا متى بدأت أرى أنّي أشبهه. أو أنّه يشبهني..

إلى حدٍّ كبير. ربّما داخلني هذا الشعور حين بدأت أراه عن بعد، في المرّات الأولى.

كان الطقس ممطرًا. وكان هو يقف إلى جانب سيّارته رافعًا ياقة سترته الجلديّة ناظرًا إلى أسفل. حسبت أنّه يتأمَّل في عجلة مثقوبة أو في ما شابه.. ثم ما لبث أن فتح باب السيّارة وأخرج محفظة كبيرة منفوخة. سارع وكيل المرأب المكشوف ليحمل الحقيبة عنه، فرفض ثم راح يسير بخطى سريعة نحو مدخل البناية.

قلت في نفسي وأنا أرقبه من بعيد: إنّه فعلاً قصير القامة ومملوء الجسم كالأولاد، أو كالمراهقين الصغار الملفوفين ما زالوا بشحوم الطفولة، قبل أن تُضمر الهورمونات قاماتهم وتمشقها. رأيت أنّه يشبهني في جسدي القصير المدعبل الذي لا يشبه روحي أبدًا. فأنا في داخلي ككلب الصيد الأصيل الممشوق ذي الخاصرة الضامرة. ككلب الصيد الأصيل النزق المشرئبّ السريع الحركة، جسمي هذا الذي استعدته بعد ضمور دام سنوات طويلة تركت فيها وديع الولد إلى أماكن بعيدة. بعيدة.

وهكذا، شيئًا فشيئًا، راح معلِّمي الجديد يردّني إلى نفسي القديمة التي كنت نسيتها.

كانت المعلِّمة، لقصر قامتي، تجلسني على طاولات الصفّ الأماميّة. هناك لم أكن أستطيع أن أتلهّى بما يدور في الصفّ، إذ لا أستطيع من موقعي إلّا رؤية المعلِّمة ومتابعة الدرس. ومن موقعي الأقرب إلى اللوح، كنت الموكل بجلب الطباشير وبتنظيف اللوح وطاولة المعلِّمة في آخر الحصَّة... كلّ ذلك كان يدفعني دفعًا لأن أكون من بين الشطّار الأوائل، دون أن أتميّز بذكاء أو باتِّقاد الذهن.

لم تكن المعلِّمة، السمينة مثلي والحسنة النوايا، تحبّني بالفعل كما كانت تدَّعي في اهتمامها بي وفي حثِّها الدائم لي لأكون أفضل وأحسن وأكثر اجتهادًا. لم تكن تحبِّني بالفعل، إذ لم يكن خافيًا عليها ما كان يلحقني من سخرية واضطهاد. كانت تكتفي بتأنيب خفيف للصفوف الخلفيّة قائلة لي بصوت منخفض: لا تلق بالاً يا وديع، إنّهم فقط يغارون منك.. كان يساورني من أنّها مثلي تخاف منهم. لا محبَّةً بي بل خوفًا منهم... كانت المعلِّمة تعرف، لا بدّ، عذابي الذي لم أكن

أستطيع إخفاءه، ورغم ذلك لم تكن تتوانى، بحجّة تعزيتي وتعزيز موقعي، من إقامة الشبه ومن المقارنة بيني وبينها حين كانت في عمري، من حيث المثابرة والجدِّيَّة وتجاهل غيرة الآخرين والمضيّ قُدُمًا في طريق الحياة. . .

لم أكن أرى في كلامها إلّا ما يراه الآخرون في الصفِّ: الشبه بين سمنتي وسمنتها. كانت كلَّما استرسلتْ في الكلام انتفخت أمام عينيَّ عجيزتها القريبة منِّي. عجيزتها الهائلة التي تملأ فضاء الصفِّ. . . وتملأ روحي بالقرف والكراهية. . . والإحساس بالذلِّ والمهانة!

أروح، وأنا عائد إلى البيت، أفكِّر بالهرب. أقول سأهرب من البيت ومن المدرسة. سأهرب ذات يوم. أشتغل في حيٍّ بعيد عن حيِّنا كصبي فرّان. فصبيّ الفرّان ينام في الفرن ويأكل من خبزه فلا يتشرّد في الشوارع ويسرق اللصوص أعضاءه ويبيعونها للمستشفيات، كما كانت أمِّي تردّد كلَّما بقيتُ في الشارع مساءً مستغرقًا في اللعب. . ولا هو يموت من الجوع على أرصفة الشوارع، كما كان أبي يردِّد عمَّن لا يعمل بجدٍّ وشرف.

طيبة المعلِّمة كانت تعذّبني. كنت أرى تلك الطيبة، متجمِّعة بشكل كرويّ في غَلَظة رقبتها وذلك الانتفاخ المترجرج بين الذقن وأسفل العنق. كأنّ في داخل تلك الرقبة سائلاً لزجًا يهتزّ كلَّما تكلَّمتْ، ويتبقَّع بدوائر حمراء وزهريَّة تصل حتى الأذنين وكامل الذقن حين يطول شرح الدروس أو يغضبها تلاميذ الصفوف الخلفيّة ولا تقوى عليهم. إنّها لا ولن تخيفهم كنت أقول في نفسي آسفًا. فهي سمينة، وهي جبانة تدّعي الطيبة. طيبة غير مقنعة، حتى حين أُمعن في غلظة رقبتها ووجهها المدوَّر المنفوخ. و. . . هيهات أقول في نفسي حين كانت تزعق متملّقة: أنتم لا تشفقون. هيهات، إذ لم نكن حتى نحن، حلفاءها، أولاد الصفوف

الأماميّة، نشعر بشفقة عليها ولو بدا علينا الاستغرق في الصمت والتأمُّل الجادّ والأسف. ولا أعتقد أنّي كنت الوحيد من بين هؤلاء الذين كانوا يتمنُّون الغلبة لمن هم في الخلف لولا.. لولا قسوتهم علينا، وعليّ أنا بالذات، إذ كنت الأكثر شبهًا بها. فقط لو كانت جميلة قليلاً، قال لي بصوت منخفض رفيقي أيُّوب مقرِّبًا رأسه من رأسي، في غمرة ضجيج دفعها إلى الخروج شبه باكية من الصفّ... ثم هزَّ أيُّوب رأسه أسفًا، وأغلق دفتره قبل أن يلتحق بهرج الصفوف الخلفيّة.

الصفوف الخلفيّة... الصفوف الخلفيّة. حلمي كان الالتحاق بالصفوف الخلفيّة رغم حظوظي القليلة. أعرف أنّ عليّ قبل أيّ شيء التوقُّف عن الأكل. قبل أيّ شيء... ثم التوقُّف عن الدرس... عن متابعتها تحكي أمام وجهي، فتدخل الدروس عنوة وغصبًا عنِّي إلى دماغي. لكنّني كنت أعلم أنّ كلّ ذلك لن ينفع في دفعي إلى الخلف بسبب قصر قامتي. ولو أصبحت نحيلاً، ولو صرت كسولاً مهملاً، فسأبقى بقربها بسبب قصر قامتي... ثم أعود عاجلاً أم آجلاً إلى الدرس... وإلى الأكل.

يائسًا كنت، من زاويتي المعتادة في الملعب، أنظر إليها على شرفة غرفة الأساتذة تأكل منقوشتها بالصعتر. أمضغ سندويشتي وأنا أنظر إليها من طرف عيني تمضغ منقوشتها. تمضغ بالفم الملآن، وقد اتّصل انتفاخ خدَّيها بانتفاخ رقبتها... كأنّها تمضغ على جهتي فمها في الوقت نفسه. لم تترك يومًا كسرة واحدة من منقوشتها. كانت تفتح الورقة المبقّعة بالزيت، وتروح تبلّل إصبعًا بريقها وتلتقط به أصغر الفتات، قبل أن تختفي داخل القاعة وقد ازدادت سمنة وجبنًا.

كان أيُّوب جاري في المدرسة وفي الحيِّ. نترافق في الذهاب والإياب، وندرس غالبًا معًا عشيّة الامتحانات.

فقط أمام أيُّوب كنت أجرؤ على الأكل بحرِّيَّة. كان وجهه الأسمر الصغير يشرق حين يراني أتوجَّه إلى المطبخ. يقول: لقد جعنا يا رجل. «يا رجل» يقول أيُّوب كلَّما أراد التعبير لي عن صداقته وعن حال الألفة بيننا... تلك الألفة التي يريدها شبيهة بتضامن وتعادل الرجال لا الأولاد. كأنّنا، حين نأكل معًا، نشترك في سرٍّ يفترض ما تفترضه الأسرار من حرمة ومهابة واحترام!

أنت تأكل أكثر منِّي يا أيُّوب ولا تسمن، أقول له. فيجيب جادًّا: أكلكم طيِّب. أنا لا آكل دائمًا هكذا.. ربّما لكثرة ما درسنا، جعنا يا رجل..

يساعدني أيُّوب في حمل الصواني والأطباق من المطبخ إلى طاولة الطعام بلا حرج، نزيح الكتب والدفاتر إلى طرف الطاولة ونعدّ سفرتنا

بمزاج. هل سخَّنت الأرزّ؟ يسألني. وحين لا أُجيب يقول يجب أن نسخِّن الأرزّ أيضًا. انتظرني قليلاً. يعود بالأرزّ ساخنًا، يفسح للطبق في الوسط ويسوّي حوله دائرة اليخاني. ينظر إليَّ، ويقول جادًّا: هكذا أفضل.

يخطر لي أحيانًا أنَّ أيُّوب هو الوحيد الذي يفهمني في هذا العالم. وتغمرني القناعة بأنّه سيكون الإنسان الوحيد الذي آكل معه وأمامه طيلة حياتي.

وأحسب أنّه يفهم ذلك بسبب ما أراه فيه من جدِّيَّة خاصَّة وقت نأكل معًا. صحيح أنَّ أيُّوب لا يميل إلى المزاح والهزل بشكل عامّ، وهو قلّما يفرقع بالضحك حين يسود الصفّ مزاج الهرج والقهقهات الصارخة. لا في الصفِّ ولا في الملعب. وهو حين يلتحق بالصفوف الخلفيّة، بين الحصص، يكتفي بالابتسام. الابتسام الذي يعني الموافقة وعدم الممانعة في ما يجري في الخلف، ودرءًا للأخطار التي قد تترتّب على الشاطرين ذوي القدود الصغيرة، المتحالفين بالضرورة مع المعلِّمين والإدارة، والذين قد يذهب بعضهم إلى حدِّ الخيانة والوشاية والسعاية. لذا، كان أيُّوب يجرّني جرًّا، ممسكًا بي من طرف قميصي، إلى قاع الصفّ، بين الحصص. وحين أُمانع مسوِّيًا قميصي بغضب تحت حزامي، كان يقرِّب رأسه من رأسي ويتمتم: نريد العودة إلى البيت بسلام... يا رجل! فأتذكّر سريعًا ما حصل لنا ذات مساء وأرضخ لطلبه. وأحيانًا أتساءل إن كان يحميني أو يحمي نفسه، إذ هو يعرف أنّهم سيهاجموننا نحن الإثنين، في كلِّ الأحوال، إذ نكون معًا، ولن يوفِّروا واحدًا دون الآخر، كما سبق وحصل بالفعل، ذلك المساء... ثم أجد أنّه من السخف عدم مراعاة الأقوياء، وأستحسن تصرُّف أيُّوب في حكمته ودرايته، فأنا لست أقلّ جبنًا أو توجُّسًا أو حذرًا منه، ولا

أكثر قوّة وشجاعة في الدفاع عن النفس أو ردّ الضربات. . . ولا أدّعي ذلك.

أيُّوب هو الوحيد الذي يجرؤ على القول لي، ونحن على طاولة الأكل: لا تُكثر من الخبز.

أنظر خفية لأرى إن كان أحد يسمعه. أقول لا يفعلها لو كان أحد على مقربة، حتى أمّي.

يغرف لي من قِدر اليخنة ليشجّعني على الإقلال من أكل الخبز. . . يتصرَّف كأنّه في بيته لا في بيتنا، وأطمئنّ إذ ذاك إلى أنّ أيُّوب الخجول لا يخجل من الأكل والاستزادة منه قدر ما يريد عندنا. فهو قد تأكَّد تمامًا ممّا كانت أمّي تكرِّره على مسمعه بداية تردُّدِه على بيتنا، من أنّ كلّ هذه المقبِّلات، كلّ هذا الطبيخ وهذه الحلويات ستذهب إلى برميل الزبالة إن لم نأتِ عليها، وهذا حرام! وتقول أمّي لأيُّوب إنّ ما لن يأكله هنا، في بيتنا، سيحمله معه إلى أمّه، فأمّه عزيزة علينا وليست كمثل الجارات اللائي توقَّفت أمّي عن إمدادهنّ، بعد أن وصل كلام بعضهنّ إلى مسمعها عن أنّنا نرسل للناس طعامًا فاسدًا. كانت أمّي تكلِّم أيُّوب بجدِّيَّة تقارب أحيانًا التأنيب أو التهديد، ولا أعتقد أنّها إنَّما كانت تقصد العزومة الحارَّة التي قد تفكّ أسر أيُّوب من خجله المضني ليشعر بالراحة ويُقْدِم على الأكل بلا حرج.

وحين استقرَّ أيُّوب في سلوكه المطيع لأمّي، توطَّدت صحبتي معه. ليس فقط بسبب ازدياد وتيرة زياراته لي وبقائه في بيتنا حتى وقت متأخِّر، بل لشعوري بأنّي أقوى منه وليس عليّ الخوف منه أو مداراته. فأيُّوب يعرف أنّه فقير. أنّه أكثر فقرًا منّا. ونحن نعرف أنَّه يعرف ذلك.

الحقيقة، أنّي لم أكن أشعر أنّنا فقراء، إذ كان من حولنا، أكان في

حيِّنا أو في المدرسة، من هم أكثر فقرًا.

كان أبي طبّاخًا يعمل لدى أحد الأثرياء. كان ثراء المعلِّم، كما يدعوه والدي، بعيدًا عنّا لا نعرف عنه شيئًا ملموسًا سوى فضلات الطعام التي يعود بها أبي، وأشياء أخرى خاصّة في المناسبات والأعياد مثل الثياب والألعاب القديمة. لكنّه كان ثراء ننال منه ما يجعلنا نشعر بأنّنا جزء منه. بأنّنا نحن وعائلة المعلِّم في بحبوحة واحدة. إنّنا، على نحو ما مثل الأهل والأقرباء.. فثياب أولاد المعلِّم مثلاً، حين تصغر عليّ أو تضيق، كنّا نرسلها إلى أولاد الجيران ونتباهى بها، أخال، أنا وأولاد الجيران كما سبق وأن تباهى بها ابن المعلِّم. فهذه الثياب من نوعيّة جيّدة وتبقى على حالها كأنْ جديدة، لا يُفسدها العتق أو كثرة الغسيل، كما قد تفسد الثياب التي نشتريها نحن وتعتق بسرعة.

صار أيُّوب يفهم، حين أغمز له بعيني في نهاية الحصص، أنَّ دعوتي له لمرافقتي على طريق العودة إلى الحيّ هي اليوم دعوة خاصَّة. وهي تعني أنّنا لن نتلكّأ أمام الدكاكين أو نجلس على درجات مداخل البنايات. سنتوجَّه توًّا إلى البيت حيث أكون رأيت صباحًا الأكياس الكثيرة والجاطات الملفوفة بورق الألمنيوم، مصفوفة في مطبخنا، على الرفوف وحتى على طاولة السفرة أحيانًا. هكذا تكون الأمور غداة عزيمة أو عشاء احتفالي في بيت المعلِّم.

لا يتملَّقني أيُّوب على نحوٍ خاصّ في تلك الأماسي العامرة. فقط يزداد تذمُّري من كثرة الدروس والفروض التي علينا إنهاؤها قبل الأكل. هكذا أجعله يكتب بعضًا من فروضي بحجَّة الإسراع واختصار الوقت، وليس لأنّه أشطر منِّي. فهو حريص جدًّا على مراعاتي وعلى عدم إظهار تفوّقه عليّ. حتى إنَّه يطرح عليَّ أحيانًا أسئلة يعرف الإجابة عليها، أو يطلب مساعدتي في استيضاح وفهم ما أعرف في العمق أنّه واضح

ومفهوم لديه. فقط لتجديد الثقة بشطارتي وباقتناعه الدائم والعميق بعدم مزاحمته لي، وباستعداده للتراجع خطوة إلى الوراء، إن أنا توجّست من تعادلنا أو وجودنا على الدرجة نفسها من الذكاء والقوّة.

هذه الكريما البيضاء عظيمة يا رجل، يقول أيُّوب، معبِّرًا عن الامتنان نفسه.

لماذا تقول كريما يا أيُّوب، وأنت تعلم أنّ اسمها مايونيز؟ مئة مرَّة قلت لك إنّها مايونيز وأنت تعود وتسمِّيها كريما.. أقول بحنق متّهمًا إيّاه صراحة بالخبث، رافضًا مداهنته لي الزائدة عن اللزوم، والتي تعني بشكل من الأشكال استعباطي والتذاكي عليّ. يضحك أيُّوب ويقول: أمزح معك... أمزح معك لأرى إن كنت ستغضب مجدَّدًا من نسياني اسم المايونيز. من يقول إنّ هذا مجرّد بيض وزيت، شاطرون الأجانب يا رجل. ثم يلعق أيُّوب إصبعه ويعود إلى جدِّيّته التي تشبه الاعتذار.

ـ أصابع الكوسى الصغيرة هذه لا أراها إلّا عندكم!

ـ هذه أبلما. لا يمكن حشوها بالأرزّ واللحم مثل الكوسى العاديّة، فقط باللحم والصنوبر، ثم الصلصة فوقها كما ترى.

ـ وتطهى بالفرن لا في الطنجرة؟

ـ والأرزّ إلى جانبها.. وممكن أن تُطهى باللبن.. أو بالصلصة البيضاء. مع الحليب، والجبن على وجهها يحمرّ ويصبح لونه ذهبيًّا... والفجل يناسب الأبلما. خذْ فجلة.

ـ أقول لك الحقيقة... الفجل يناسب كلّ شيء. كلّ الأكلات يناسبها الفجل. حتى عروس اللبنة، محسوبك يضع فيها فجلاً.

ـ كلْ سمبوسك... السمبوسك حين تعتق تلين عجينتها وتصبح كالخرقة المبلولة ونرميها.

ـ معك حقّ، يجب أن تقرش العجينة تحت الضرس، لا أن تعلك علكًا.

ـ ذلك لأنّ أبي يعجن الطحين بالزيت قبل أن يرقّه.

ـ شاطر أبوك.

ـ مرّة حمل إلينا أكلة أجنبيّة لا أحد في البلد يعرف كيف تُطبخ. تعلَّمها من فرنسيين كان يعمل عندهم على الزيتونة. الآن ذهبوا. عادوا إلى بلدهم ولا أحد يعرف طبخ هذه الأكلة... كلْ عيش السرايا، فيها قشدة، وهي لا تبقى طويلاً، حتى في البرّاد تفسد القشدة سريعًا وتسبِّب إسهالاً وأحيانًا تُسمِّم.

ـ على الواحد أن ينتبه. شاطر أبوك... يا رجل.

تفرّجْ عليّ. انتبه كيف سأفعل، ولا تلحق بي إلّا حين أصل إلى نهاية النزلة.

أكرِّر لأيُّوب أنّ عليه أن يبقى في مكانه ولا يركض بموازاتي مثل الأولاد البلهاء. فقط حين أصل إلى نهاية النزلة، يلحق بي ليساعدني على دفع الدرَّاجة صعودًا حتى مدخل بناية بيتنا، وبعد ذلك أفكِّر في إعارتها له.

الآن، بعد أن صار عندي درّاجة، لي، ملكي، أربطها إلى الدرابزين الحديد في مدخل البناية، صار أيُّوب يعرف أنّي لا أكذب عليه، وأنّ له أملاً حقيقيًّا في ركوبها. قبل ذلك كنت أستأجر درَّاجة لساعة، أو أكثر، في الأعياد، وأظلّ أمنِّيه بالركوب وبإعارتها له حتى ينتهي وقت الإيجار، وأقول له: ياه.. انتهى الوقت يجب إعادة الدرَّاجة الآن، فيقول أيُّوب: لا.. أنت تكذب عليَّ في كلِّ مرَّة، وأنا الذي علَّمتك الركوب. حلْ عنِّي.. لن أصدّقك بعد الآن. ثم يتركني في

الشارع ويذهب إلى بيته.

كيف تعلَّم أيُّوب الركوب وهو لا يملك درَّاجة ولا يستأجر واحدة... حين أسأله يقول: هكذا.. مسألة بسيطة. وأحسب أنّ جسمه الخفيف يساعده في ذلك، فيبقى متوازنًا ولا تميل به الدرَّاجة يمينًا أو يسارًا فيقع عند أوّل ارتجاج.

تفرَّجْ عليّ. شوف كيف سأفعل، أقول لأيُّوب. أُثبِّت قدميّ جيّدًا على الدوّاستين، أرفع يديّ عن المقود، ثم أرفع ساقيّ في الهواء وأنطلق صارخًا بأعلى صوتي. وقبل وصولي إلى آخر النزلة، أستعيد المقود مقلِّدًا صفير الكوابح على الإسفلت وأنا ألتفّ بالدرَّاجة سريعًا لإيقافها قبل اصطدامها بالجدار.

حلو! حلو، يقول أيُّوب وهو يأخذ منِّي الدرَّاجة مستفيدًا من مزاجي الحسن. فهو يعرف أنّي لن أعيره إيّاها إن وقعتُ قبل نهاية النزلة، وهو بأيّ حال لن ينطلق رافعًا ذراعيه وساقيه في الهواء مثلي في تمريني البهلواني، فهذا يضرّ بميكانيك الآلة الجميلة، ويضع أيُّوب على القدر نفسه من المميّزات التي أتمتَّع بها أنا ـ صاحب الدرَّاجة. لذا كان أيُّوب يقوم بلفَّتين أو ثلاث لعّات في الشارع، دون أن يطلب حتى محاولة القيام ببعض البهلوانيّات التي كنت متأكِّدًا بأنَّه أكثر براعة منِّي في تنفيذها.

في العصاري التي كنت أوفَّق فيها في إثبات براعتي أمام كلّ المتفرِّجين من الأولاد، كنت أترك لأيُّوب أن يربط السلسلة المعدنيَّة إلى درابزين الدرج في مدخل البناية، كأنّه هو أيضًا صاحب الدرَّاجة. كأنِّي أُكافئه على كونه صاحبي دون الآخرين المتفرِّجين على براعتنا، وقد استحقّ ذلك. وفي تلك العصاري المشرقة، لم يكن أيُّوب ينتظر أن أدعوه للصعود معي إلى البيت.

الجنزير، يقول أيُّوب، يجب أن نشحِّم الجنزير باستمرار فهو مثل محرِّك السيّارة. إذا تراكم الغبار على الشحم ستروكب حلقات الجنزير. سيؤثِّر ذلك بالطبع على توازن المقود أيضًا. يجب أن ينزلق الجنزير وينساب ويكون كالحرير. غدًا، أحمل إليك شحمًا من محطَّة البنزين على الشارع الرئيسي.

ـ غدًا نشحِّم الجنزير. كلْ من هذه أيضًا. أسكبْ القطر بمزاجك.

ـ إنّها المفضَّلة لديّ. تعرف هذا.

ـ أعرف، أعرف، لأنّ اسمها «زنود الستّ»، أقول لأيُّوب وأنا أغمز بطرف عيني... فنفرقع بالضحك معًا، وألحظ أنَّ خطًّا أسود يلتمع بوضوح فوق شفته العليا الرقيقة، فيما أذناه تضيئان باللون الأحمر... كضوئيّ الدرَّاجة الخلفيين.

ـ هل تعتقد أنَّهم سيضربوننا حتى الموت، سألت أيُّوب وأنا ألهث وراءه.

ـ أهذا ما أنت خائف منه؟ إن كسَّروا عظامك ولم تمت تكون سعيدًا؟ أسرعْ قليلاً.

دلف أيُّوب في مدخل بناية ضيِّق وهو يشدُّني من صدر قميصي. كان المدخل معتمًا، فتوقَّفت في مكاني لا أتبيَّن شيئًا. عاد أيُّوب إليَّ وراح يجرُّني وراءه على السلالم، ولم يترك قميصي إلّا حين صار الضوء قويًّا على عتبات الطوابق العليا.

وصلنا إلى السطح، اقترب أيُّوب من حافّته الحجريَّة وتمدّد على الأرض ينظر إلى الشارع. بدا أنّه يعرف هذا السطح جيِّدًا. ثم انتبهنا إلى وجود امرأة في الطرف الآخر تلمّ الغسيل عن الحبال.

كيفك أمّ وليد! قال أيُّوب بعد أن وقف بسرعة وهو يبتسم بكلِّ

احترام وينفض الغبار عن ثيابه. سندرس قليلاً هنا أنا ورفيقي. هنا رَوَاق.

بعد أن سلّمتْ المرأة على أمّه وغادرت السطح محمّلة بتلّة الثياب، قال لي أيُّوب إنَّهم كانوا يسكنون في هذه البناية قبل انتقالهم إلى داخل حيِّنا. فهمتُ أنّنا إذن بعيدون عن بيتي.. وبعيدين أصبحنا عن الطريق ما بين المدرسة والبيت.

كم سنبقى هنا؟ سألت أيُّوب وأنا أتوجّس من هبوط الليل ومن قلق أمِّي، بعد أن هدأ روعي من عصابة الزعران التي كانت تلحق بنا.

إسأل نفسك قال أيُّوب. أنت لا تتعلَّم. إنّها ليست المرّة الأولى. لقد سبق أن حذّرتك مرارًا. في المرّة المقبلة سأتركك لوحدك تدبّر رأسك معهم. الواحد يتجنّب الأخطار وأنت تذهب إليها. أنا مقهور منك أكثر من قهري من سليم الجردون. الحقّ عليك. تريد أن تتشاطر وتتفلسف.. اصطفل، تخرج من المدرسة لوحدك. والله إنّها المرَّة الأخيرة. ربّك هو العليم متى سننزل عن هذا السطح. أنا لست مجبرًا. ماذا سأقول لأمِّي عن بقائي خارجًا هكذا..

ـ أضاعوا أثرنا، أليس كذلك؟ سألت أيُّوب محاولاً قطع سيل كلامه الغاضب، هو الذي يكاد لا يغضب أبدًا، ومعيدًا الاطمئنان إلى قلبه بأنّنا أصبحنا الآن في مأمن. ثم أضفت: سليم الجردون مجرم، لكنّه ينسى. غدًا يكون قد نسي، وأنا سأسترضيه سوف ترى!

ـ ليست المرَّة الأولى يا وديع. ليست المرَّة الأولى. ما لك وللمعلِّمة، أهي أمّك أو أختك، اتركها تدافع عن نفسها. ما لك وللناس؟!

ـ أنا لم أدافع عنها.

ـ بلى، أنت دافعت عنها وحقَّرت الجردون، وأنت تعرف ذلك. الصفّ كلُّه كان يسخر منها معه. الجردون كان يدافع عن نفسه. تسأله هي سؤالاً صعبًا، تعرف أنَّه لا يعرف الجواب، ثم تروح تسخر منه، ثم تسخر منه، ماذا يفعل الجردون برأيك حتى يحتفظ بشيء من كرامته... هي عرَّضت نفسها، هي تعرف الجردون، تريد أن تربِّيه؟! معركة خاسرة سلفًا وهو، هي تعرف، سيردّ لها الصاع صاعين... ما دخلك أنت؟ ترفع يدك وتردّ على السؤال بشطارتك المعهودة.

ـ أنا فقط أردت أن أختصر المشكل، فقط حتى ننتهي من هذه العلقة بسلام.

ـ بسلام. بسلام... يا عين. أنت أهبل رسمي أم تدّعي ذلك! هل تعتقد أنّي لم أكن أنا أيضًا أعرف الجواب على سؤالها. لماذا سكتُّ. نصف الصفِّ يعرف الجواب. لم ينبر أحد غيرك للردّ... وما هي النتيجة: «برافو وديع. انظر يا سليم وديع الأصغر منك. تدافع عن كسلك بقلّة التهذيب. برافو وديع، ثابر وديع». رأسك لا يفرز. أنت لا تحسب العواقب. لن تخلص منهم هذه المرَّة... وأنا؟ ما دخلي كي أهرب معك وأعرِّض نفسي؟

هبط الليل ونحن على السطح، وأيُّوب يتمدَّد ويطلّ من حافّته الحجريَّة إلى الشارع، ثم يعود ويجلس بقربي. ذهب عنه الآن غضبه تمامًا.

ـ نعود إلى البيت؟ أسأله.

ـ إنّهم لئام، يجيبني، سيبحثون عنّا طويلاً. ننتظر قليلاً بعد.

ـ ماذا سأقول لأمِّي؟ أسأله.

ـ الحقيقة، يجيبني، قل لها اضطررنا. ستفهم أنّنا هربنا من

الزعران، ونجونا من تكسير عظام محقّق. ستفهم. أنا أيضًا سأفعل ذلك بصراحة.

وأنا أسير بجانبه في ظلام الشوارع المقطوعة الإنارة، في حيّ لم تطأه قدماي من قبل، رحت أفكّر أنّ الصداقة شيء ثمين وضروري. كان أيُّوب مقطّبًا يسير بجانبي صامتًا مهمومًا، وأنا أفكّر في ما عساني أخفّف به عنه، وأعتذر.

ـ يلّلا، مضت على خير، أقول.

ـ إن شاء الله، يقول.. لا أعتقد! غدًا صباحًا، نتوجَّه مباشرة إليه وتعتذر، عساه يسامحك.

رافقني أيُّوب حتى بيتي ولم يتركني على الطريق أتابع سيري وحيدًا. وقفنا أمام مدخل البناية برهة صامتين. ثم قال: حسنًا، سأذهب الآن. انتظرني غدًا صباحًا، سأمرّ عليك ونذهب سويّةً. نترافق. لا تتصرَّف من رأسك. وأنا سأتكلَّم مع الجردون ثم تأتي أنت وتشرح له المسألة. تشرحها بكلّ جدِّيَّة واحترام بعد أن تعتذر.

هززت رأسي موافقًا واستدار أيُّوب ليعود إلى بيته لوحده. ما زالت الكهرباء مقطوعة. في مدخل البناية تعثّرت بقطع معدنيّة متناثرة، ووقعت أرضًا في جلبة كبيرة، وصرخت. فتحت سامية باب شقَّتهم حاملة شمعة. عاد أيُّوب أدراجه إذ سمع صرختي.

كانت درَّاجتي الجميلة الجديدة مكسَّرة مفكَّكة متناثرة في الأرض، مقطَّعة الأوصال. ميّتة.

نظر أيُّوب إلى الدرَّاجة طويلاً، ثم قال: لا أمل.

قالها بحزن من كانت الدرَّاجة الجميلة ملكه.

ارفع صوتك. أنا لا أسمع شيئًا، يقول الأستاذ لأيُّوب الذي يتوقّف عن القراءة متوجِّسًا من انفجارنا بالضحك. أقرّب من يده محرمة ورقيّة ليمسح بها قطرات العرق التي بدأت تتساقط الآن على دفتره، فلا يأخذها ولا يلتفت إليّ.

ـ ليس هناك مشكلة يا أيُّوب. بل على العكس. تابع القراءة، تحليل النصّ الذي كتبته هو الأفضل.. وأريدك أن تقرأه على الجميع، وبخاصّة على هؤلاء الحيوانات في القاع، أريد من الجميع صمتًا كاملاً ونهائيًّا.. تفضَّل أيُّوب.

يهمّ أيُّوب بالقراءة. يفتح فمه فتخرج تأتأة خفيضة يخنقها الصمت وانتصاب الآذان في الرؤوس المشرئبّة. يفتح الأستاذ الشبّاك على مصراعيه، ويجلس وراء طاولته واضعًا رجلاً فوق رجل ومسندًا رأسه إلى كفِّه. فيعرف أيُّوب أن لا فكاك.

ولم تكن مشكلة أيُّوب في صوته الذي ارتجّ بالبلوغ في هذه اللحظة

بالذات، بل كذلك في جمله الرومنطيقيّة المليئة بالتعابير العاطفيّة المأخوذة من النصّ الأدبي الأصلي.

كان أيُّوب يتعثّر بصوته، كمن يمشي معصوب العينين في الأرض البور الوعرة. يعلو وينخفض أو يقع في مكانه، في قاع الحنجرة، أو يقبع في العين أو الهاء أو الحاء كالبغل الحرون. أو يقفز إلى الأنف رفيعًا كإبرة تنغرز بين الخياشيم والحلق. وكأنْ لسخرية القدر، كان صوت أيُّوب يستوي قليلاً عند الكلمات العاطفيّة التي تخرج مستقرَّة واضحة دون غيرها ودون سياق، فيرتفع الهرج، و.. آه يا عندليب... فيرتاح أيُّوب قليلاً ويتنفّس عميقًا، قبل أن يُعيد الأستاذ الأمور إلى نصابها وتخيّم قسوة الصمت من جديد، جاذبة رأس أيُّوب إلى القاع المعتم في غطسة أخرى.

يخطر لي وأنا أنظر إلى تخبُّط أيُّوب، ملتاعًا ومندهشًا، أن أجرِّب صوتي لأرى إن كنت سأجده حيث تركته للتوّ، أو إن كان هكذا، كما يحصل لأيُّوب، بدأ في التقلّب، استعدادًا لمغادرتي على حين غرّة على مسمع من الجميع، ثم أقرّر أن أبقى صامتًا وأن أجرِّب صوتي حين أكون في البيت لوحدي، أن أروح أتكلَّم بالصوت العالي لوحدي حتى يخرج صوتي الجديد. أظلّ أتكلَّم بالصوت العالي لوحدي حتى تنتظم هذه الذبذبة المختلّة، وحتى أحكم السيطرة عليها، فأقودها إلى الغَلَظة في السرّ قبل أن أخرج بها. سأظلّ أتكلّم وأغنّي بالصوت العالي، حتى تتوقّف برطعة هذه السمكة المجنونة التي تقفز من فم الصبية إلى الهواء.

حتى لو اضطرني ذلك إلى افتعال المرض والتغيُّب عن المدرسة ليوم أو اثنين أو أكثر...

يا مدوّبني فأحلى عذاااب. . با بعتلك بعنيّ جواااب. . . مش لوم يا حبيييبي ولا عتاااب. . . مش أكثر من كلمة آاااه يا حبيبي باحبّك آه. . . نار يا حبيبي بحبّك.

يجب أن يكون البيت خاليًا لنستمع إلى عبد الحليم. يجب أن نكون لوحدنا، كأنّ في الأمر عيبًا ما يستدعي الإجراء السرِّي، ليس بسبب كلمات الحبّ اللاهبة، أو ذلك الشجن الذي ينسلّ من الصدر آهاتٍ طويلة. شجن صريح يشبه الاستمتاع بالألم واستجداء الشفقة، والشفقة على الذات بالصوت العالي الذي يصل حدّ الصراخ أحيانًا.

منذ أتى أبي من بيت معلِّمه براديو مسجّل جديد، وأنا أتحاشى الجلوس معه أو مشاهدته يستمع إلى أمّ كلثوم. يشرد ويدخِّن ويهزّ رأسه ويتنهَّد. . . وأحيانًا يصرخ آه آه. . . فأقوم إلى غرفتي، كما كنت، صغيرًا أدّعي الحاجة للذهاب إلى الحمّام حين تكثر مشاهد القُبَل على التلفزيون.

حين يستمع أبي إلى أمّ كلثوم، ويرافقها بالصوت في قفلات المقاطع... صارخًا: يا مسهّرني... أشعر أنّ امرأة غريبة موجودة في صالون بيتنا، غير أمّي، يتوجّه إليها أبي بالكلام والغناء.

امرأة غريبة لا تُشبه أمّي. أصغر سنًّا منها وأكثر جمالاً... وفي ملامحها شيء من الفحش. كأنّ أبي الذي يتغيّر هكذا فجأة هو رجل من رجال الشوارع الذين يلطِّشون البنات الصغيرات بكلام بذيء سريع، ثم يعودون قبل أن ينتبه أحد من المارَّة إلى هيئة الآباء العاديين.

ربّما ليس بسبب ذلك كنّا نستمع إلى عبد الحليم، حين نكون أنا وأيُّوب لوحدنا في البيت. بل لأنّ عبد الحليم مطرب قديم لا يستمع إليه أصدقاؤنا الميّالون إلى موسيقى الفرق الغربيّة الدارجة. عبد الحليم كأنّه من مخلَّفات زمن هو لأهلنا... ويجعلك حين تتذكّر وجهه ـ إذ لا تستطيع الاستماع إلى أغانيه دون أن تتذكَّر وجهه بعينيه المنكسرتين ورأسه المائل ـ يجعلك تخرج إلى مدن لا تعرفها، فيها حدائق عامَّة مرتَّبة وشوارع نظيفة قليلة المارّة، وفيها بنات يشبهن الصور القديمة التي لأمّهاتنا صغيرات، أو حتى لجدّاتنا. شوارع من الأفلام المصريّة. فيلم مصريّ، يقول لك الواحد اختصارًا فتفهم المقصود.

لكن أيُّوب يصرّ على أنّ الصوت الجميل لا يعتق. لا يعتق ولا تنتهي صلاحيّته مثل القشدة، يقول ساخرًا منِّي، متبرِّمًا من جهلي فنّ السماع.

اسمع الصوت كيف يخرج من داخل الحنجرة. لا تتأثّر بالناس. ما لك والناس. بعدما مات عبد الحليم، وصار له زمان ميتًا، جاء كثيرون ليقلِّدوه ولم ينجحوا. كثيرون... هاني شاكر وأحمد دوغان وغيرهما... وعلّمهم أساتذة كبار في فنِّ الصوت. لماذا يسعون هكذا إلى تقليده لو كان عتيقًا؟!

أنظر إلى أيُّوب ممدَّدًا على السجّادة الحمراء بطوله الذي أصبح الآن فارغًا، وقد شبك ذراعيه تحت رأسه ينظر إلى السقف.

آاه لو تعرف باللا أنا فيه.. والشووق اللي غلبت أداريه.. كان قلبك يسهر لياليه مع قلبي ويقولّو آاخ يا حبيبي با حبّك آه..

أفكِّر، وأنا أرقب سرًّا ومن طرف عيني فتيل الشعيرات الخارجة من كمِّ قميصه القصير، أنّه ربّما كان مغرمًا. وأتساءل مرّة أخرى لماذا، ونحن في العمر نفسه، يسبق جسم أيُّوب جسمي...

بعدك نااار

قربك نااار

وأكثر من نااار

أنقلب على سريري وأتمَّد على ظهري. أشبك يديّ تحت رأسي مبعدًا الوسادة. أغمض عينيّ، وأنزلق شيئًا فشيئًا داخل حنجرة المطرب الحنون الحزين. دفء لطيف يشبه القطن الخفيف يلفّ كامل جسمي. أنسى زخّات المطر القويّة في الخارج وعلى زجاج نافذتي القريبة. وأنسى إضاءة النور في الغرفة، أنسى فروضي التي صرت الآن أكرهها. أكرهها كراهية أيُّوب للأكل، وللدرس أيضًا.

يضيء أيُّوب النور، ويلبس سترته مستعدًّا للخروج. توقّف المطر، يقول، سأعود إلى البيت.

أنزل من السرير لأرافقه حتى الباب، فأشعر فجأة بالبرد يرجّ أطرافي بقوَّة. أغلق الباب وراءه بسرعة، وفي الممرّ القصير أنتبه إلى وجود أبي وحيدًا في الصالون. ستبقى أمّك في المستشفى هذه الليلة، تعود غدًا في الصباح. إحدى آلات الغسل تعطَّلت. مرضى الكلى يتكاثرون والمستشفيات، يقول أبي... أكون وصلت إلى غرفتي، فلا

أسمع بقيّة الكلام. أقول إنّ رغبته في التحدّث إليَّ هي بسبب قلقه عليها... لي أنا، ليس هنالك ما يقوله أبي.

هو أيضًا لم يضئ النور في الصالون، واكتفى بضوء البلديّة في الشارع يدخل من القنديل البرتقالي الكبير ليُنير خفيفًا نصف بيتنا.

أصطنعُ النوم، وأنا أسمع وقع قدميه العاريتين يقترب من باب غرفتي. يسألني إن كنت تناولت العشاء أم... فلا أُجيب. يحسب أنّي غفوت، فيقترب أكثر. يمكث قليلاً فلا أتحرَّك. يجذب الغطاء بتؤدة من تحت قدميَّ ويغطّيني إلى نصفي، ويخرج.

لا أريد أن آكل معه. ولا أن نتحدَّث معًا عن مرض أمّي أو عن أيِّ شيء آخر!

ولا أريد أن أسأله لماذا يجلس هكذا على الأرض مسندًا ظهره إلى الكنبة. لماذا لا يجلس على الكنبة ككلّ خلق الله الذين يملكون كنبًا في صالوناتهم... ولماذا يبقى هكذا حافي القدمين، لماذا لا ينتعل شيئًا في قدميه الكبيرتين الحافيتين البشعتين الملتويتي الأظافر؟

لماذا أشعر أنّ شيئًا في أبي يشدّ دائمًا إلى تحت.

ولماذا لم ينجب ولدًا غيري. ما المشكلة في خصيتَيْ هذا الرجل!!

ليست مشكلة حقيقيّة أقول لأيُّوب. إنّها عمليّة بسيطة ولا تستأهل المسألة أن تشرح لهم. سأخرج غدًا بأيِّ حال.

يتجاهل أيُّوب الأمر ويستخفّ به. كأنّه أتى إليّ في المستشفى ليُريني الآلة الصغيرة، لا ليزورني كمريض.

يقول، وهو يفتح بابها الصغير ماسحًا إيّاه بكفِّه من الداخل: يجب أن تنتبه من الغبار. فحين يدخل إليها الغبار يصبح انزلاق الشريط صعبًا، وبالتالي ممكن أن يلكّ على هذه السنّ وقد يمطّ أو حتى ينقطع.. لا عليك! سأقول إنّها الزائدة الدوديّة، ولن أقول لأحد في المستشفى أنت.. أقول نسيت أو إنّك عدت إلى البيت وانتهى الأمر.. سأُسمعك نقاوة الصوت.. صحيح أنّها ليست على الليزر، لكن سترى. انتظر قليلاً.

يقلب أيُّوب الكاسيت في «الووكمن» بدراية. يجتاحني غضب مرّ، حين أنتبه إلى الشابّ على السرير الآخر ينظر صراحة باتّجاهنا ويتفرّج

على أيُّوب، على عرض أيُّوب الذي يبدو له شيِّقًا... وإلّا لما أسند رأسه إلى ذراعه، وانقلب في السرير ناحيتنا.

ـ عظيم... يا عين. إنّه اختراع العصر يا أيُّوب. توقّف قبل أن أكسرها وأُلقي بها من النافذة.

ـ ليست اختراع العصر، يجيب أيُّوب بهدوء، لكن أنا لم يكن عندي واحدة.. ثم حين تضع السمّاعتين على أذنيك تدخل الموسيقى إلى كامل جسمك. لم أكن أعرف. وصدّقني.. الكبيرة أقلّ ثمنًا، لكنّها ليست أقلّ جودة. ضع السمّاعتين في أذنيك وسترى. تدخل الموسيقى رأسك، كامل جسمك وحواسّك، خالصة، نقيّة، غير..

أنظرُ خفيةً إلى الشابّ على السرير الثاني، فأجده مبتسمًا ابتسامة عريضة صريحة. يكاد يقهقه.

ـ طيِّب. خلصنا منك. خرا عليك وعلى هذا الووكمن.

ـ لماذا؟ يسأل أيُّوب بالهدوء نفسه.

ـ لأنّه اختراع من أيّام أبو فتيل، وأنت كمن يكتشف الآن البارود.

ـ أعرف... لكن أنا... أنا لم يكن عندي واحدة. هل رأيت ما أجمل علبتها.. نسيتها عندكم! على فكرة، لا ترمها.

ثم يضع أيُّوب السمّاعتين بأناة على أذنيه ويستغرق في السماع تاركًا إيّاي أتخبّط في انزعاجي وغضبي، اللذين رحت أفكِّر أنّ سببهما الكامن ربّما كان الألم من الجرح في أسفل بطني، أيضًا.

ألا يعرف أيُّوب أنَّه فقير. هل يعرف أيُّوب كم هو فقير. هل يعرف ويتجاهل. هل تعوّد ذلك منذ صغره، فلم يعد ينتبه... أم أنّه حقيقةً لا يهتمّ. أم أنّه قويّ لهذه الدرجة فلا يخجل.

هل يستغرق في السماع فعلاً.. هكذا، وينسى ابتسامة الشابّ

الساخرة، أم أنّه لم يره أصلاً. يهزّ رأسه مندمجًا مأخوذًا بما يسمع ناسيًا، ساهيًا عنّي. وكأنّي لست متورِّطًا بما هو فيه، لست معنيًّا. لا دخل لي في أنّه ـ وهو الصديق الوحيد الذي يزورني ـ فرح بامتلاكه للمرّة الأولى آلة سخيفة رخيصة الثمن لقدم تقنيّتها، وبخسة لدرجة أنّك قد تجدها، وهي ما زالت صالحة، في براميل النفايات. وأنا في غرفة بسريرين، وكان أبي يريدني في غرفة بأربعة أسرّة، لكنّه لم يجد سريرًا فارغًا إلّا في الدرجة الثانية. و.. ما الفرق، يقول أبي، إنّه الطبيب الجرّاح إيّاه سيقوم بإجراء العمليّة أكنتَ في الدرجة الثانية أو في العنبر. العنبر، يقول أبي.

ينتبه أيُّوب فجأة لوجود الممرِّضة قرب سريري. يقف بسرعة معتذرًا، فتقول الممرِّضة إنّها تحمل إليّ الأكل، وإن ممرّضًا شابًّا سيمرّ بعد قليل لتغيير ضمّاداتي. ثم تدعوه إلى الجلوس مجدّدًا، وهي تبتسم بلطف منبِّهةً إيّاه إلى قرب انتهاء وقت الزيارات على أيّ حال.

يلفّ أيُّوب شريط السمّاعتين بعناية، ويدسّ الووكمن الكبير الحجم في جيبه الخلفي بصعوبة: صحيح أنّه اختراع قديم! لكن... هذا الحجم الصغير لم ينزل إلى الأسواق من زمان، يقول أيُّوب.

تأخذني عليه شفقة خفيفة. تعالَ كلْ معي، أقول له، فيقترب من الصينيّة، ثم يكشّر قرفًا ويبتعد: كلْ أنت. وجبة ممتازة، يجب أن تأكل. أنا لا شهيّة لي. ثم يردف: امتحان العلوم الطبيعيّة بعد يومين. لم أفتح الكتاب. يجب أن أدرس قليلاً. أنت حجّتك جاهزة، مريض.

أنا أعرف أنّي سأرسب هذه السنة، أقول لأيُّوب. وأنا أيضًا يقول لي.

لكنّنا نجحنا نحن الإثنين. فالامتحانات كانت سهلة نظرًا للفترات الطويلة التي توقّفت فيها الدروس بسبب الحروب.

ولم يقل أيُّوب لأحد لماذا كنت في المستشفى، إذ لم يبدُ على أيّ من تلامذة الصفّ الحشريين أو الأقوياء اهتمام خاصّ بأمري... لكن، لم يكن تبقّى على امتحانات آخر السنة سوى أسابيع قليلة، وأسرار كهذه يلزمها إمّا الوقت وإمّا الغضب. أن تختلف، أن تتقاتل مع أحد يشتمك ليهينك. إذ ذاك فقط يمكنك التأكّد ما إذا كان سرّك محفوظًا أم لا... وأنا لم أتقاتل مع أحد قبل امتحانات آخر السنة.

لا سبب لديّ لأشكّ بأيُّوب، بكتمانه وصدقه. لا سبب لديّ سوى الكتمان والصدق هذين اللذين كانا يقرِّبانه من سلوك الرجال. سوى أنّنا كبرنا قليلاً، وبتنا ربّما أقرب إلى حيِّز البالغين الذين لا يعترفون بقدسيّة الأسرار، لا يقيمون وزنًا كبيرًا لجدِّيَّة الوعد والقسم، حين يرتأون أنّ الأمر لا يستحقّ ذلك. كما حين فاجأتُ أبي يتكلَّم، دون أيّ حرص أو

دراية، أمام جارنا وأخته العزباء، على مدخل البناية، عن خصيتي العالقة فوق، وعن وجوب إدخالي المستشفى لإنزالها إلى جانب رفيقتها.

ولم يسألني أيُّوب إن كانت العمليّة نجحت أم لا. لم يأتِ على ذكر العمليّة لا من بعيد ولا من قريب. ولا حتى هكذا عَرَضًا، ونحن نثرثر أو من قبيل الحشريّة أو التسالي. كان ذلك يقلقني، إذ لم أكن متأكِّدًا ما إذا كان السبب في حرص أيُّوب أم في استخفافه بذلك السرّ الذي صار عنده من أسرار الأولاد.

ندمت. ندمت. لم أكن مُجبرًا بأيِّ حال أن أكشف لأيُّوب عن تفاصيل العمليّة. ما كان ليعرف من نفسه، وهو القليل الحشريّة، لو قلت مثلاً إنّها الزائدة الدوديّة. جرح في أسفل البطن وكفى!

ندمت.. لكنّني رحت مع الوقت أنسى ندمي هذا، ولا أتذكّره إلّا في مناسبات قليلة.

في ذلك الصيف، حين كنّا نذهب للسباحة معًا، كنت أراقب نظرات أيُّوب لأرى إن كان سيحدِّق إلى أمكنة ما معيَّنة في جسمي وأنا بالمايوه. كان سروالي جديدًا، فضفاضًا ويصل تقريبًا حتى الركبتين، فلا تبان من تحته أشياء كثيرة حتى وهو مبلّل تمامًا. وكان مايوه أيُّوب يشبه الملابس الداخليّة القديمة. مايوه قصير ضيِّق ملتصق بالجسم ويرتفع ليغطّي البطن حتى ما فوق الخصر.

هذا المايوه كان لأبيك يا أيُّوب؟ رحت أقول له غارقًا في قهقهاتي القويّة، حين ألقى ببنطلونه على الرمل أوَّل نزوله هذا الصيف إلى البحر. لا! قال لي بجدِّيَّة كعادته، إنّه عندي منذ سنتين أو ثلاث فقط... ثم ليس في المايوهات موضة. أنظر حولك..!

أسترسلُ في الضحك: بلى هناك موضة... ثم لم يعد يوجد في العالم كلّه مايوه له حزام.. ويرتفع هكذا من فوق حتى المعدة.. أنظر كم أصبح ضيِّقًا عليك.. والله سيضحك علينا الناس.

يهزُّ أيُّوب رأسه مستخفًّا بكلامي. يتمدّد على الرمال ويجعل ذراعيه على وجهه اتّقاء للشمس. أغطّي أنا قنِّينة الماء بالمنشفة حفاظًا على برودتها، وأسحب كيس السندويشات إلى تحت رأسي. أسوِّي نظّارتي السوداء بفخر على أعلى الأنف، وأتمدّد إلى جانبه.

حين يخرج أيُّوب من الماء، أرى مرّة أخرى كم أنّ جسمه سبق جسمي.

ففي ضوء الشمس الباهر، ترتسم بوضوح فتائل الشعيرات التي نبتت على صدره وتحت إبطيه... وتبدو عضلات الفخذين والساقين في استداراتها الصغيرة كبراعم آيلة إلى الانتفاخ والتفتّح. اتِّساع كتفيه وضمور خصره يبدوان كنسخة أصليّة مصغَّرة، لكن مكتملة، لما سيصير إليه الجسم في زمن غير بعيد. كما أنّ الكرة الصغيرة التي ترتسم بين فخذيه، تحت المايوه الضيِّق الذي يقطر ماء، تذكِّرني مرَّة أخرى بقلَّة ما لديّ في المكان نفسه.. وباستمرار تجاهل أيُّوب وعدم سؤاله عن نجاح عمليَّتي. أردّ ذلك إلى خجله، وأسحب المنشفة أغطّي بها كامل وسطي.

أتوقّف عن الأكل، وأُعيد السندويش إلى الكيس بحركة خفيّة حين تقرِّر جوقة الفتيات، في زقزقة جماعيّة عالية، شغل المساحة الفارغة غير بعيد عنّا. أراهنّ يسوِّين كثبان الرمل الصغيرة بأقدامهنّ ثم يفرشن المناشف والحصائر، قبل أن يخلعن أثوابهنّ ويطوينها بعناية ليبقين بالمايوهات. ترفع إحداهنّ صوت المسجِّل دليلاً على استقرارهنّ في المكان.

كنّا عال، أقول لأيُّوب معبِّرًا عن ضيقي، فيعزو الأمر إلى كثرة السابحين الطبيعيّة في يوم أحد حارّ من صيف قائظ. ثم يضيف: لا تلتفت كثيرًا، بينهنّ واحدة أعرفها... أهي التي تنظر ناحيتنا بابتسامة عريضة، أسأله. لا، يقول، تلك التي على يسارها، ذات المايوه البرتقالي.. لا تلتفت كثيرًا، دعنا منهنّ...

ثم أراه مستغرقًا في الأكل ناظرًا إلى الأفق، وحين ألتفت إليه لأشتكي من ارتفاع صوت الموسيقى في مسجِّل البنات، أجده مبتسمًا ناحيتهنّ، مذبّلاً عينيه على نحو لم أره عليه من قبل.

لكن ذلك الصيف حمل إليّ الاطمئنان، اطمئنانًا لم ينزل عليّ مرفقًا بالسكينة، بل حلّ فيَّ كالتعب يردي الجسم المرهق بعد جهد جبّار.

كأنّ جسمي قفز من الطفولة قفزة واحدة. لا... كأنّ أحدًا دفعني فجأة وبقوَّة إلى الناحية الأخرى.

لم يتذبذب صوتي ثم يتغيّر فجأة إلى الثخين الثقيل، كما كان يحصل لرفاقي في الصيف. لم تنكسر موجته العالية تمامًا، لم ينزل في فمي صوت آخر غير ذلك الذي كان لي ويكبر معي ببطء ككامل هيئتي.

حين كنت أغنّي وحيدًا في البيت لأختبر صوتي، كان يجيء هو نفسه، بإلفته المعتادة، يجوب طالعًا نازلاً في صندوق رأسي... هو نفسه، لكن مع قابليّة قليلة مضافة للنزول إلى تحت، إلى النوطات الغليظة، حين تستدعي ذلك أغنية ما لوديع الصافي مثلاً.

كذلك لم أرَ جسمًا آخر يطلع من جسمي، كما كان يجري لأيُّوب،

وبقيت استداراتي تقريبًا على ما كانت عليه. لم يضمر ولم يمشق ولم يفبرك عضلات نافرة. ورغم متابعتي الحثيثة، لم أَرَ شعرًا كثيفًا يغطّي المنابت المفترضة لهبوط الرجولة الكاسح في أماكنها... فقط بعض الشعيرات المتباعدة التي تشبه نتف الحشيش البائسة الطالعة شذرًا في أرض لم ترتوِ مطرًا. لذا، كنت أحلقها سرًّا في الحمّام بآلة أبي التي أحرص على غسلها وتنشيفها جيّدًا بعد كلّ استعمال، فلطالما سمعت إنّ الحلاقة تقوّي بصيلات الشعر، فتخرج شعرتان أو أكثر من منبت كلّ واحدة... لم أجرؤ على حلق شاربي الرفيع، إذ إنّ نتيجة تجاربي لم تكن مضمونة. وكان من الأفضل أن أبقى بخطٍّ أسود فوق الشفة العليا يؤذن بشارب مقبل، على أن أعود إلى هيئة الأمرط الأقرب إلى الطفل أو الخنثى.

وكان قلقي يزداد، ويعذّبني هذا القلق، حين ألحظ أنَّ جسمي لا يكتفي فقط بالاستقرار في طفولته وفي حَرَنِه وعناده عن الخروج منها، كولد أفسده الدلال وأعاقه عن النموِّ الطبيعي، بل يجنح إلى تقليد ضدّه إمعانًا ونكاية. هكذا، كنت أرى ثديّي يبرزان عوضًا عن أن يذوبا تمامًا، وينصهرا في درع الصدر. ورغم أنّي كنت متأكّدًا من أنّ تحريك ذراعيّ دائريًّا وبسرعة ليس هو التمرين الأمثل لإذابتهما، ومن أنّ ثقل المحوِّل الكهربائي أسحبه من فيش البرَّاد لأطوِّح به في الهواء لن يسوِّي القبّتين البارزتين إلى شكل درعين، إلّا أنّ فكرة الالتحاق بنادي الصحَّة والقوَّة القريب لم تساورني أبدًا. هناك سأنكشف تمامًا. لن تنفع القمصان الفضفاضة، ولن تجديني النماذج الصارخة لما لن أصيره يومًا في حياتي. وكان يحزنني أنّي، رغم تواضعي وقلّة طموحي عن صورة الديكة المتباهية، فإنّ ما كنت أطلبه من الحياة هو عرف صغير أحمر. وظللت أفكّر بخصيتيّ وباحتمال فشل العمليّة، إلى أن حلَّ ذلك الفجر المبارك.

استفقت منتفضًا خارج السرير غارقًا في العرق. مثل الطالع من كابوس. مثل الداخل في وطيس حمّى حمراء بارتعاشاتها التي ترجّ الأعضاء رجًّا بين السخونة والبرد. اللهيب والصقيع. والخدر أيضًا الذي ينزل كالشلل.

كدت أصرخ لأمّي مستنجدًا.. بقيت، ربّما دقائق طويلة، أمام ثدييّ سامية الهائلين، لا أعرف إن كنت في الحلم أم استيقظت منه. ثديان هائلان يتحرّكان كمضخّتين عملاقتين طلوعًا ونزولاً أمام كامل مساحة جسمي القريب، تكادان تلمسانه. وجسمي المتقوّس باتّجاههما يؤلمني حتى يكاد ظهري يطقّ، وأسفل بطني الممغوص أن يقع منّي.

دقائق، لا بدّ طويلة، حتى أحسست ببرودة السائل اللزج الذي ألصق بسروالي الداخليّ بباطن فخذيّ.

كان رعبًا خالصًا. كان رعبًا خالصًا قبل أن أدجّن جسمي على رغبته وعلى ثدييّ سامية وكامل جسمها... وقبل أن يدجّنني جسمي على الاستقرار شيئًا فشيئًا في الناحية المقابلة، حيث دفعني مرَّة واحدة في البلوغ.

هذا ما عرفته أنا عن جسمي وطمأن بالي. وكان تبقّى لي أن أريه للآخرين... خاصّة حيث لا يظهر من ذاته، في جسم الولد المدعبل الذي لم يتغيَّر كثيرًا.

كانوا قلّة. كانوا قلّة مع أنّ الهدوء كان يسيطر على الحيّ، وعلى المدينة بكاملها.

كانوا كأنَّهم في زيارة قصيرة، لقضاء حاجة ما في بيتنا، لا لمشاركتنا في حزننا كما يفعل المعزُّون. حتى إنّ صالوننا الصغير لم يمتلئ مرَّة. حتى إنَّ صالوننا الصغير كان يبقى لساعات فارغًا.. لوحدنا أنا وهو. نترقَّب وقع خطى على الدرج... تبطئ قليلاً ثم تغيب.

لكنْ، لا يبدو على أبي أنَّه مهتمّ لأمر المعزِّين. يتحرَّك في غيابهم كأنَّه يبحث عن شيء في البيت لا يجده. وحين يأتينا بعضهم، يعود إلى الصالون ويجلس صامتًا لا ينظر في عيون الناس. ثم يقف حين يقفون، يمدّ يده متمتمًا ببعض الكلمات، وبعد خروجهم يروح يتحرَّك في زوايا البيت كأنَّه يبحث عن شيء لا يجده.

في المستشفى، حين قال له الطبيب إنَّه لم يستطع لها شيئًا، بسبب قلَّة الفيول في البلد واستحالة تشغيل كافَّة المحرِّكات لإطلاق آلات

الغسل، راح يبكي كالأطفال. بالصوت العالي. لم يسأل الطبيب لماذا لم يمت إذن كلّ مرضى الكلى. كأنّه كان يعرف سلفًا أنّ امرأته هي التي ستبقى تغرق في بول دمها حتى النفس الأخير. هي والمرضى المسجَّلون على نفقة وزارة الصحَّة، المرضى العموميُّون. راح يبكي كالأطفال، وأنا أنظر إليه، أفكِّر فيه لا في موت أمّي. لا أرى من موتها سوى سائل البول الأصفر يمتزج بحمرة الدم مرتفعًا، كأنْ في شرايينها حتى يصل إلى العينين ويطفئهما. أرى شرايينها كأنابيب المختبر. هكذا، تمتلئ سمًّا، وتمتدّ بسُمِّها إلى كامل الأعضاء، توقفها عن الحركة، عن النبض، وتقتلها.

لم أسأله إن كنّا سنأخذها إلى البيت قبل المقبرة. لم أرافقه في معاملات إخراجها من المستشفى. لم ألتفت حين ناداني بصوته المتهدِّج: وديبيع. رحت أمشي في ممرّات المستشفى بخطى سريعة إلى الباب الخارجي، كمن يرتفع من عمق الماء ليتنفّس قبل الغرق بثوان.

وديع. بصوت يخثِّره المخاط الذي سدّ منخريه وبلعومه. وديبيع. بصوت يتدلّى من الحنك المحلول كلعاب فاسد.

لم أذهب إلى البيت. قلت لن أذهب إلى البيت الآن. نزلت من السرفيس ورحت أمشي. قفزت عن حاجز الحديد على حافّة الكورنيش، وظللت أسير حتى الصخر غير بعيد عن الصيّادين.

كان البحر رائقًا كما لا يروق إلّا في بداية الخريف. أقف، أتنفّس ببطء. أقف، أسوِّي التراب، أُنقِّيه من الحجارة الصغيرة، ثم أجلس. ثم أحاول أن أتنفَّس ببطء لأحتوي غضبي.

أكرِّر في رأسي أنّ أمِّي قد ماتت. أكرِّر في رأسي أنّ أمِّي قد ماتت، وأنِّي لن أراها ثانية، وأنَّ ذلك يدمي قلبي، لأنّ ألم فقدان الأمّ

لا يوازيه ألم في الدنيا لأنّه اليتم الحقيقيّ. أكرِّر.. أنّي لن أرى أمّي ثانية، لن أراها ثانية، وسيكون البيت فارغًا منها دومًا، إلى الأبد. ولن أسمع صوتها في...

لكنّي لا أهدأ. أقوم من مكاني وأمشي. أعود إلى حاجز الحديد على حافّة الكورنيش. أجلس عليه وأتوازن على معدنه الرفيع متمسِّكًا بقوَّة بيديّ. أراني أضرب رأسه بقضيب الحديد. أرى الحديد يدخل في جمجمته وأسمع طقطقة العظام. أرفع القضيب وأضرب ثانية في الثلم نفسه.. ثالثة ورابعة حتى يتناثر الرأس قطعًا صغيرة مجبولة بالدم والبول. رأس أبي.

أعوذ بالله. يا الله. أنزل عن حافّة الكورنيش وذراعاي تؤلمانني.

أعود إلى السير بعكس اتِّجاه البيت. أرى الشمس تميل إلى الأفق فوق البحر. أشتري كعكة بالسمسم، وأجد أنَّ ثمنها هو كلّ ما تبقّى في جيبي. آكلها عائدًا أدراجي سيرًا قبل هبوط الليل، إذ لن يكون باستطاعتي ركوب السرفيس.

عند مدخل البناية، أجد سامية تكنِّس الدرجات الملاصقة للبوَّابة الحديد. تتوقَّف ناظرة إليّ بارتباك. الله يرحمها تقول بما يشبه الفزع. تضع المكنسة بجانب الحائط بسرعة. تقول كمن يعتذر: ذلك أنّ أُناسًا كثيرين سيأتون. كلّ الجيران عندكم فوق. الله يرحمها. أمِّي عندكم وأنا سأطلع بالشاي والقهوة حالما...

كانوا قليلين. فقط الجيران الذين لم يغادروا البناية هربًا إلى قراهم والمناطق الآمنة.

وخلال أيّام العزاء أيضًا. لا أحد من أهلها. لم نستطع إبلاغهم. لا أدري إن كان يعرف مكان أحد منهم.

وهو... لا أهل له. لا أدري إن كان له أهل أو عزوة. أخته الكبيرة، التي لم تكن تحبّ أمّي، ماتت من سنين بمرض السرطان، وهو كان يعتقد أنّها مصابة بالسكَّري. أو يقول ذلك لنا حتى لا نخاف منها.

كانوا قليلين لدرجة أنّ الصينيّة الكبيرة التي حملتها سامية من بيتهم بدت، بكؤوسها وفناجينها الكثيرة، معدّة لعزاء حقيقيّ، يحضره أُناس كثر.

يعرف أنّي لن أردّ عليه. يترك أيّامًا تمرُّ أو أسابيع ثم يفتعل صدفة ما ليعود إلى السؤال: متى تذهب إلى الثانويّة، فالوقت يمضي والدروس بدأت منذ...

يعتقد أنّي ما زلت متأثّرًا بموت أمّي، منصرفًا إلى الحزن عليها، لا أستطيع شيئًا أو عملاً آخر. كان يعتقد ذلك أو يقنع نفسه بذلك.

الآن لم يعد يداري كما كان يفعل في السابق. بل صار كأنّه يحرص على أن يُريني حزنه ليختبرني. ليفحص سبب صمتي. أهو بسبب موتها أم أنّي أُبيِّت شيئًا ضدَّه هو.

أخبط الملعقة المليئة باللبنة على رغيف الخبز خبطًا قويًّا، وهو بجانبي يقلِّب اليخنة ويمتدح رائحتها الزكيّة، فيفهم أنّي لن آكل ممّا يطبخ. لن آكل معه إذن، ولن أكلِّمه. لكنّه يعود في المساء ويحاول من جديد. يدخل غرفتي رغم عدم إجابتي على نداءاته المتكرِّرة من الصالون. يدخل غرفتي حاملاً بعض ثيابها. يشعل النور إن كان مطفئًا

بحجَّة أن يريني ما يحمل، وهو إنَّما يريدني أن أرى احمرار عينيه وانتفاخهما من البكاء. يريدني أن أسمع جيِّدًا صوته المتهدِّج وهو يقول: ماذا نفعل بهذه الثياب! كأنَّه صار يمدّ في حزنه عليها من أجلي لا بسبب فقدها.

لا أُجيب. أستدير على سريري ناحية الحائط تاركًا إيّاه عنده باب غرفتي... وأحيانًا لا أدري كيف أو لماذا، أقول له: اذهب وانتعل شيئًا في قدميك... ثم أندم إذ قد يفسِّر ذلك اهتمامًا منِّي به، يحثُّه على العودة إلى التكلُّم إليّ.

حين تغضبني محاولاته المتكرِّرة، خاصّة في ما يعني العودة إلى الدراسة، أروح أستعمل جسمي للردّ عليه. أخبط الأشياء بعنف أو أتمدّد في مكاني شاغلاً المساحة بوقاحة. أغيِّر مكان الأغراض دون مبرِّر، أتحرَّك في البيت بغَلَظة، أخرج وأعود مرارًا كأنْ لا رقيب عليّ. وأحرص أيضًا على لملمة أغراضي وجلي صحوني وكيّ ثيابي التي لا أتركه يغسلها، إذ أخفيها جيِّدًا في غرفتي التي فهم أنَّه ممنوع عليه دخولها، هذا فقط ما يبدو أنّه فهمه، رادًّا السبب إلى دخولي عمر الشباب، لا بدّ!

لم أكن أكره أبي. كنت فقط لا أريد أن أراه. والشفقة الخفيفة التي كانت نادرًا ما تأخذني عليه اختفت تمامًا. اختفت تمامًا قبل موت أمِّي. اختفت حين زرنا بيت معلِّمه أنا وأيُّوب.

كان ذلك قبل نهاية الصيف.

كنت وأيُّوب في غرفتي حين ناداني من الصالون، وفي صوته جزل من يحمل نبأً سارًّا.

قال إنَّه وعد معلِّمه بما سيطلب منِّي، ومن أيُّوب أيضًا، لِمَ لا.

وعده قبل إطلاعنا على الأمر أو طلب موافقتنا، ولذا نحن ملزمان الآن بوعده. قال لمعلّمه، الذي كان يشكو من ضعف ابنه في مادّة الرياضيّات على عتبة عام دراسي جديد، أن لا لزوم للإتيان بأستاذ خصوصي. فوديع ابني متفوّق في الرياضيّات وهو متقدّم على السيّد الصغير بصفّين، أي أنّه يعرف برنامج صفّ السيّد الصغير بالضرورة. وهي فرصة لردّ بعض الجميل. وهي فرصة ليتعارفا وليُبدي وديع محبَّته وعرفانه. أليسا كالأخوين، ووديع يلبس ثياب أخيه السيِّد الصغير ويلعب بألعابه... رغم أنّه أكبر سنًّا... لكن ما شاء الله جسم السيِّد الصغير كبير... وهو سابق عمره في أشياء كثيرة... ثم إنّ الأستاذ ليس في عمرهما. هما سيتفاهمان بشكل أفضل. من الجيل نفسه. ولا لزوم للدفع أدام الله عزّكم... غدًا يأتيكم وديع...

ربّما لم يقل أبي كلّ هذا لمعلّمه. لكن أيّ كلام مختلف كان باستطاعته أن يقول؟ أيّ كلام مختلف؟

ـ لكنّي لا أفهم شيئًا في الرياضيّات. أنت تعرف أنّي لست قويًّا في الرياضيّات... كيف تعد الرجل بـ...

ـ إنَّه في صفّ أدنى من صفّك بسنتين. والرجل ذو فضل علينا، وهو يعرف أنّك من الأوائل.

ـ لن أذهب، لا غدًا ولا بعد غد. لن أذهب.

قال لي أيُّوب بعد أن عدت إلى غرفتي: لماذا تعمل من الأمر قصَّة. أنت جيِّد في الرياضيّات وأبوك وعد الرجل. وإن شئت أذهب أنا معك، إن استصعبت تمرينًا أحلّه أنا له. سيدو الأمر لعبًا، تسلية، خاصّة إن ذهبت أنا معك... هكذا شباب نتسلّى.

لكن لا نبقى وقتًا طويلاً، قلت لأيُّوب.

لا. لا نبقى طويلاً.

ولا نأكل عندهم.

لا. لا نأكل عندهم. ولماذا نأكل عندهم؟

أو نحمل أكلاً معنا.

ولِمَ نحمل أيّ شيء معنا من عندهم؟!

كان الشابّ الصغير لطيفًا وخجولاً. وكان بالفعل ضعيفًا جدًّا في الرياضيّات. كان ودودًا ولا يتوقّف عن الكلام على ولعه بكرة السلَّة. كانت الخادمة تحمل إلينا الشاي والكاتو، والعصير، فلا نجد أيّ حرج في التلذُّذ بالضيافة طالما أنّنا كنّا لوحدنا في غرفته بعيدًا عن مائدة الأهل أو عن الأكل في المطبخ، عند أبي، كما خُيِّل إليّ حين دخلت أمّه علينا بعد استئذان، ودعتنا بلطف للبقاء على الغداء. لم تصرّ حين رفضنا، لكنِّي فهمت أنّها إنّما تدعونا إلى طاولة العائلة. إلى غرفة السفرة الكبيرة.

كان أيُّوب يبقى طيلة الوقت منهمكًا في استطلاع أغراض الغرفة. استحوذت على اهتمامه آلة حاسبة شديدة التعقيد ولها شاشة صغيرة. كان يقاطعنا ليسأل عن وظائفها المتعدِّدة، ويهزّ رأسه استحسانًا. ولأنِّي لم أكن بحاجة إليه، كنت أعتقد أنّه لن يرافقني في اليوم التالي. لكنَّه كان يأتيني كلّ صباح أكثر حماسًا لمرافقتي إلى بيت معلّم أبي، وفي رأسه غرض مثير يريد اكتشافه أو اللعب به.

في طريقنا، رواحًا ومجيئًا، كان يحدِّثني بإعجاب كبير عن تلك الأغراض، وبخاصّة ذلك الكومبيوتر «أميغا» الذي يبدو أنَّه يحوي أكثر من ألف لعبة. ليست ألعاب بمعنى أنّها للأطفال، يقول أيُّوب، إنَّها

هندسات إلكترونيّة عجيبة تتحدَّى الذهن والأعصاب. ليست أبدًا كتلك التي في محلّ الفليپر في حيِّنا.. شيء عجيب يا رجل!

أنا، كنت أقوم بمهمَّتي بشكل جدِّي على أمل أن أنتهي منها سريعًا. لا أتلهَّى مع أيُّوب حتى في الوقت الذي أترك فيه تلميذي وحده على مكتبه ليحلّ التمارين.

خلال أسبوعين، استطاع الشابّ الصغير أن يراجع معي الفصول المهمَّة. كان يوم سبتٍ حين قلت له إنَّه بات الآن جاهزًا للسنة المقبلة. كان موافقًا تمامًا، وشكرني بحرارة وخجل كأنِّي أستاذ حقيقي. خرج من الغرفة وعاد مصطحبًا أمّه.

قالت أمّه بعد أن شكرتني كثيرًا إنَّه ينبغي الاحتفاء بهذه المناسبة ولو «على الخفيف». رفضتُ فورًا مدّعيًا أنّ أمّي بحاجة إليّ ذلك المساء. حاولت أن أبدو ولدًا مهذّبًا يحترم وعوده لأمّه، وأنا في الحقيقة متوجِّس من كيس ثياب عتيقة أو بقايا أكل أو مبلغ من المال ترفقه السيِّدة بمراسم الاحتفاء. أخذتُ أعتذر وأنا أحاول الاقتراب من الباب الخارجي مردِّدًا أن لا لزوم... لا لزوم. لكن أيُّوب لم يكن يتحرَّك معي باتّجاه الباب. وفي لحظة قرَّرتُ، وأنا مبتسمًا ابتسامتي البلهاء، أن أخرج إن نجحت بالوصول إلى الباب الخارجي، وأن أتركه هناك.

قبل المدخل، رأيت أبي. قبل أن أصل إلى بهو المدخل لأدلف منه إلى الباب الخارجي، رأيت أبي يقف بمواجهتي في المسافة القصيرة التي كانت متبقّية لي للوصول إلى الباب.

فوجئت به، إذ كان في وقت العصر يرتاح في البيت قبل خدمة العشاء. وهو لم يكن يرتدي زيّ الطبَّاخين بالمريول الأبيض والطاقيّة، كما كنت أتخيَّله دائمًا في بيت معلِّمه.

قالت السيِّدة، وهي تتقدَّمنا إلى الشرفة الواسعة، إنّ أبي أعدَّ لنا عصرونيّة، وقعة خفيفة للمناسبة... على السريع. ولأنّنا في عمرنا لا نحبّ الرسميّات والجلوس إلى مائدة الأهل والبالغين. وهي تعرف ذلك من ابنها.

على الشرفة الواسعة كانت الطاولة بمفارشها الملوَّنة عامرة بأطباق أُعدِّت كأنْ لعشرين شخصًا.

كيف عرفوا بأنّه اليوم الأخير للدروس. هل قلت أمس شيئًا في البيت دون أن أنتبه... أم تراه الشابّ الصغير أفضى لأمِّه فرحًا بما تعلَّمه وأنجزناه سويّة في وقت قصير... أم أنَّه أيُّوب فاخر لأبي بالتزامنا بردّ المعروف، بمعاونته لي، وبمرافقتي إلى هناك حتى آخر يوم من واجب العرفان، ضامنًا عدم انقطاعي أو نكوصي بالعهد!؟.

جلس أيُّوب، وراح يربّت على وسادة الكرسي الملاصق لكرسيِّه داعيًا إيّاي للجلوس بقربه. كان ارتباكي مشوبًا بغضب حقيقيّ. كان يبدو لي أنّ تواطؤًا قويًّا يقوم بين أيُّوب وأبي، لا أعرف له أسبابًا أو مبرِّرات، وهو على أيِّ حال ضدِّي ويجري من ورائي...

جلست إلى جانب أيُّوب الذي راح يقلِّب السكاكين والشوك العديدة باحثًا بشكل ظاهر عن أوجه استعمالها...

كان أبي يبدو في جذل مضحك، وهو يحرِّك الصحون والأطباق على الطاولة من دون لزوم. فقط لينشغل، فلا يبقى واقفًا هكذا متعطّلاً إلى جانبنا بعد أن اكتمل ترتيب الطاولة. قلت في نفسي إنَّه لا بدّ أن تكون السيّدة هي التي طلبت منه ترك زيّ الطبّاخين للاحتفاء بابنه وتكريمه... هي التي طلبت منه بلّ شعره بالماء وتمشيطه ولصقه هكذا بعظام جمجمته الكبيرة. أمّا تزرير كامل سترة هذه البذلة الزرقاء

الفضفاضة، وتزرير ياقة القميص البيضاء تحته من دون ربطة عنق، ورغم هذا الحرّ الشديد، فلا بدّ أنّه من رأسه كعلامة بائنة على شدّة تهذيبه، واحترامًا للموجودين.

حين جلست السيِّدة معنا إلى جانب ابنها، عرفت أنّ أبي سيبقى واقفًا. بقي واقفًا. لم يدعه أحد إلى الجلوس.

بقي أبي واقفًا. وأنا أبتلع ما في صحني بصعوبة بالغة، وأردّ على أسئلة السيّدة بإيجاز علَّنا ننتهي بسرعة... بالسرعة المتاحة.. إذ دون أن أنظر ناحيته أبدًا، لم أكن أعرف كيف يشغل أبي الوقت، كيف سيشغل جسمه على الشرفة الواسعة حتى ننتهي من الأكل، واقفًا هكذا، إذ كانت الخادمة هي من يحمل الأطباق إلى المطبخ ويغيِّر الصحون.

كلَّما حاولت الإسراع في إفراغ صحني، كان أبي يسارع إلى ملئه، وملء صحون الآخرين وبخاصّة صحن أيُّوب، ثم يعود إلى وقفته قريبًا منّا، متحفِّزًا لملئها من جديد، فأنزل برأسي إلى الصحن حتى يكاد أنفي يلامس محتواه محاولاً ألّا أراه... وألّا أرى أيُّوب... أيُّوب الذي كان يردّ باستمرار على أسئلة السيِّدة وفمه ملآن بالأكل.

شو يا شيف، أيّهما ابنك؟

هذا، قال أبي وهو يشير بيده إليّ، أطال الله عمرك. كان السيِّد يقف في عرض الباب الزجاجيّ الذي يفصل الشرفة عن غرفة السفرة. عقد أبي حاجبيه وهو ينظر إليّ، فلم أفهم. ثم رفع يده وباطنها إلى فوق بأن قفْ، فوقفت. لم ينظر الرجل إليَّ ولم يسلِّم عليّ.

براڤو، قال معلِّم أبي. سارعت السيِّدة إلى ترك مكانها والوقوف بقربه علّه يريد منها شيئًا. قال لها لا... فقط سأمرُّ على المكتب لأخذ الملفّ... ربّما نوقّع غدًا صباحًا.

ثم قال للسيِّدة مشيرًا إلى أبي... هذه البذلة الزرقاء ما زالت البذلة جديدة... ثم تابع وهو يسير داخل غرفة السفرة وهي تلحق به... قلت لكِ أن تعطيها لابن أخي، لمنصور... ربّما تأخَّرتُ هذه الليلة... ما زالت البذلة جديدة... قولي له أن يخلعها بسرعة. ثم اختفى صوت معلِّم أبي وقد ابتعد إلى الداخل... نظرتُ ناحية أيُّوب، فوجدته يثرثر مع الشابّ الصغير. نظرت إلى أبي فوجدته يرفع ذراعه قلقًا، باحثًا ربّما عن بقعة عرق تحت إبطه، قبل أن يسارع إلى فكّ أزرار السترة وهو يتّجه مسرعًا إلى الداخل.

أذهب إلى الثانويّة وقت انتهاء الدروس. أقف على مبعدة، قبالة البوّابة الحديديّة الكبيرة. أدخّن وأنا أنظر باتّجاهٍ آخر حتى لا يعتقدوا أنّي أنتظرهم. وأقف على مبعدة أيضًا، لأنّ الناظر حذّر التلاميذ من الاقتراب منّي... ثم حظَّر عليَّ الدنوَّ من مبنى المدرسة، خاصَّة حين رآني أدخّن، مع أنّ أكثرهم يشعل سيجارته حال تخطّيه البوّابة الحديديّة الكبيرة.

في البداية، كانوا يتجمّعون حولي احتفاء بتركي الثانويّة، ويهنّئونني على جرأتي وعلى حرّيَّتي في أن أقرّر ترك الدراسة غير آبه برأي أهلي، يؤكّدون لي صواب رأيي وقراري، إذ لا تنفعنا الدروس في شيء في هذا البلد، يقولون. وفي البداية كانوا يواصلون أمامي سخريّتهم من الأساتذة الذين أعرفهم، كما كنّا نفعل حين كنت ما زلت تلميذًا بينهم، مستبدلين أسماء هؤلاء الأساتذة بالألقاب التي درجت بيننا. وفي البداية، كانوا يتحلّقون حولي ولا يكفُّون عن لمسي، عن مسك ذراعي والرّبت على

كتفي أو شدِّي من سترتي أو معصمي للفت انتباهي، وأنا مُحاط هكذا.. هكذا بكثرتهم الشديدة الجلبة.

وفي البداية، كانوا يسألون عن أيُّوب.

أقف. صرتُ هكذا على مبعدة، أدخِّن وأنا أنظر باتِّجاههم من طرف عيني، فالآن لا يقترب منِّي سوى قلَّة. هؤلاء الذين لم يكونوا أصحابي.

هؤلاء الذين كنت أسمِّيهم جماعة الصفوف الخلفيَّة، وصار اسمهم الآن، وقد كبروا، الزعران. منهم من ترك المدرسة مثلي ومنهم من لم يتركها، ليس بسبب خوفهم من أهلهم، أو لأنّ هناك أملاً ما زال في أن يتعلَّموا شيئًا.. فمن بقي منهم يتردّد على الثانويّة من غير انتظام كان يجد فيها حقلاً لممارسة لذّة خاصَّة، لا يمانع في أن تنتهي بطرده أو بانتظار نهاية السنة الدراسيّة لعدم تجديد تسجيله.

كانوا يدخلون المدرسة عنوة، كأنّ لهم في كلّ صباح انتصارًا على قانونها يوطِّد زعامتهم، خاصَّة هؤلاء الذين يتمتّعون بحصانة ووساطات تجعل الإدارة إمّا خائفة منهم أو عييّة من أيِّ إجراء بحقِّهم. هؤلاء كانوا يمارسون في الثانويّة سلطة على جماعة قلَّما ستتوافر لهم في الخارج، أو أنَّها ستكون تمرينًا مفيدًا يهيّئهم للخارج... فملعب رغباتهم كان جاهزًا مأهولاً، ينتظرهم، يثبتون فيه قوّتهم كلّ يوم، وتحدِّيهم بكسر أيّة قاعدة في أيّ وقت، وكيفما انتهى هذا التحدِّي يسجِّلون انتصارًا. يعرفون أنّ لعبتهم لا يمكن أن تنتهي إلى خسارة، إذ إنَّ طردهم، في النهاية، هو تتويج لقدرتهم ولمناعتهم ضدّ التطويع والتدجين واعتراف يائس من غريمهم بالغلبة والاستسلام، وخروجهم من الثانويّة إلى البلد هو بداية رجولة جديدة ومسار اختاروا ملامحه الكبرى وأعدّوا له، وتدرَّبوا عليه.

كنت أنا من ذهبتُ إليهم بداية لقاءاتي بهم. وكأنّهم فوجئوا بي، إذ كانوا يعتقدون أنّي ـ أنا الشاطر ـ لا بدّ أنّي تركت المدرسة لسبب قاهر كاضطراري للعمل مثلاً. إنّ من كان مهذّبًا مثلي، ومن جماعة الصفوف الأماميّة الجبناء والممالئين، لا يتركون المدرسة ولو على حمّالة. فحياتهم الصغيرة لا تجد معنى لها خارج الدفاتر وابتسامات المدرِّسين مهما غلت التضحيات.

لم يحتفوا بي، ولم يأخذوني على محمل الجدّ، ولا هم أبدوا أيّ احترام تجاهي. وربّما لم يصدّقوني حين قلت لهم إنّي تركت المدرسة بمزاجي.. هكذا، زهقت، وإنّ سلطة أبي لا تزن عندي وزن ريشة.

ثم راحوا يتركونني أصطحبهم في مشيهم مبتعدين عن حيّ المدرسة، لكن من دون حماس أو إلحاح.. ومرّة راحوا يقرِّبون من وجهي الصور الخليعة التي سيدسّونها في سيّارة معلِّمة الفرنسيَّة الجميلة. يقرأون التعليقات التي يكتبونها على الصور ويطلبون جملاً منِّي كأن ليفحصوني، وليروا مدى ابتعادي عن ذلك الذي كنته تلميذًا في صفّهم. واجتزت امتحاناتي الأولى دون صعوبات.. بل إنّ الوقت لم يتأخَّر حتى بدأوا يفاجأون بي، بمبادراتي وبسيري الحثيث نحو مراكز القيادة.. وأنا، كأنِّي لم أكن مُخيَّرًا. كان مقلقًا جدًّا أن أراوح في مكاني.. لم ألبث طويلاً في لذّة إنجاز التحاقي بهم وقبولهم بي، إذ كانت تدفعني رغبة غريزيّة، لا أسيطر عليها، في الخروج من الكثرة إلى التميُّز. لم أكن أخاف من البقاء في منطقة الظلِّ، حيث يتشابه أكثرهم. كنت قلقًا، متوتِّرًا باستمرار، ومتحفِّزًا لاستعمال كامل طاقتي للخروج من الدائرة، حيث يقبع العامّة، حيث يتجمّع الجند العاديُّون بعيدًا عن القادة، تحت أنظارهم. كانت الحبال التي تشدّني إلى التابعين قويّة. وكان مرهقًا جدًّا أن أستمرّ بالشدّ باتّجاه الصفوة، إذ كان عليّ، في الوقت نفسه، أن

أحتفظ بقوّتي، اتّزاني وهدوئي، إن أردت الخروج يومًا.

كنّا نلتقي مساء أو في أوّل الليل. فهمت سريعًا أنّه لا ينبغي أبدًا أن أسأل عن وجهة سيرنا إذ لم يكن أحد يفعل ذلك. نمشي وراء «الروديو» أو بجانبه مداورة. لا نتنادى إلّا بألقابنا حين نكون معًا. والروديو، لقب زعيمنا، هو الأبعد عن اسمه الحقيقي ـ كميل ـ وليس فيه أيّة سخرية كالتي تلحق أحيانًا بألقاب التابعين مثل «شاكوش» القليل الذكاء. وهي في الغالب لا تعني شيئًا.. «فهبّك» هو مجرّد تقليد صوتي لإيقاع الضرب على طبل «الدرامز»، إذ كان صاحب اللقب ـ بشير ـ مولعًا بموسيقى الهارد روك وبخاصّة فرقة ميتاليكا... والروديو كان شهيرًا بمسابقات السرعة التي كان يشترك فيها على درّاجته المنفوخة المحرِّك. لامس الموت أكثر من مرّة. رآه بعينيه. وبعد الحادثة الأخيرة خرج من المستشفى بآثار ظاهرة على جسده ووجهه، لكنّه كان ربح السباق قبل أن يعتزل، قائلاً إنّ تلك الرياضة غدت تضجره وهي لعبة لا تحمل مخاطرة حقيقيّة، إذ إنّ طريق السباق ليس طويلاً ما يكفي للذهاب حدّ مداعبة الموت عن جدارة.

ضجر الروديو السريع كان أحد نقاط قوَّته ومدعاة لاحترامه. ولأنَّه يضجر بسرعة، كانت مسافة الآخرين منه محسوبة بدقّة عجيبة كأنَّها تقاس كلّ يوم. ويكفي أن يرفع كوعه قليلاً ناحية من يقترب منه حين نسير معًا، حتى يعود الطامح إلى الخلف. ذلك أنّ الروديو لا يقول كلّ شيء لأيٍّ كان!

في المبدأ، ليست بيننا أسرار، وقد لا تكون هناك أيّة أهمِّيَّة لما يسرّ به الروديو إلى أحدنا، لكن أن يخفض صوته مقرِّبًا رأسه من رأس واحد منّا أو منتحيًا به عنّا، كان يعني ترقية له واصطفاء حتى ولو لم يدم ذلك أكثر من يوم أو اثنين.

عذابي كان في إبقائهم على اسمي ينادونني به ـ وديع ـ مضيفين أحيانًا «الحمل الوديع»، وهو بالضبط ما لم أكن أحتمله... «الحمل الوديع» كانت إحدى الحبال التي تربطني إلى الخلف. كان عليّ أن أنسيهم الحمل الوديع قبل أن تلتصق بي نهائيًّا. وكان عليّ أن أحسب بدقّة كلّ خطوة أو كلمة، إذ كنت ما زلت على الصراط الرفيع، على الرمال المتحرِّكة، إمّا أغرق وإمّا أمشي. تعليق سخيف واحد في غير محلِّه، أو مبادرة ليست من الفرادة أو الشجاعة أو الذكاء في شيء، كانت ستثير ضجر الروديو الذي سيلصقني بـ «الشاكوش» أو بـ «كاراخو» إلى الأبد.

كنّا نسير بموازاته أو خلفه دون كلام. وبحسب مزاجه، نكسر بسرعة مرايا السيّارات التي نمرّ بجانبها في الشوارع المؤدّية إلى الفلاة، أو نركل عجلاتها وأبوابها حتى تنطلق صفّارات أجهزة الإنذار، فيتكهرب فضاء الشارع بالصفير القوي المتنافر، وتنفتح فوق رؤوسنا النوافذ وتطلّ الرؤوس الخارجة من النوم فزعة، والتي لا تلبث أن تستكين... فليس هناك ما يفعله صاحب السيّارة، خاصّة حين يجدها ما زالت في مكانها لم يقلع بها أحد.

نبقى على سيرنا البطيء، غير حافلين بالشتائم التي نردّ عليها إمّا بمثلها أو بأغلظ منها... أو نكتفي بالضحك العالي أو بالغناء الملغوم، حيث نستبدل الكلمات بالسباب والشتائم، أو بالألفاظ البذيئة. ولا نركض هاربين من الشارع إلّا إن سمعنا طقطقة مصاريع بوّابات البنايات الكبيرة، أو ضرب عجلة المصاعد النازلة، إذ حصل مرَّة أن نزل إلينا رجل أشعث الشعر كالمجانين، حاملاً مسدَّسًا راح يركض وهو يصوِّبه نحونا.

لم نكن نعتبر انسحابنا من الشوارع في ظرف كهذا هربًا. ما كنّا

نتجنَّبه حقيقةً هو مواجهة مسلّحي الأحزاب والميليشيات الذين قد يستدعيهم سكّان الشارع، والذين قد يفسِّرون لعبتنا تحدِّيًا لسلطتهم على الحيِّ وليس مجرَّد تسلية. لم نكن نريد أيّ علاقة معهم، أيّ احتكاك بهم.

وأنا، لم اكن أُبدي حماسًا حقيقيًّا لألعابنا هذه، إذ كنت أعرف أنّها غير مهمَّة في تراتبنا، وليس لها وزن حقيقيّ في علامات التقدير. وبدل مخاطرة الاقتراب من الزعيم قرّرت أن أخرج من الجماعة بدفع من هم بجانبي إلى الخلف. أن أُبرز ضعف الضعفاء حتى أتميَّز عنهم. أن أبقى في مكاني دافعًا إيّاهم إلى الوراء منتظرًا أن يستدعيني الروديو للتقدُّم. لم يكن ذلك من دون مخاطرة بالمرَّة. لكنّها كانت مخاطرتي، وأستطيع أن أتحسَّب لها، فلا تأتيني ضربة من حيث لا أنتظر. وإن لم أستطع ردّ الضربة، أقلّه، أخفِّف من قوّتها فلا ترديني.

كانت ليلة مقمرة والربيع ما زال في بدايته. وأرض البؤرة الفلاة، حيث كنّا غالبًا ما نقضي الليل، اكتست بالحشائش القصيرة. سحبنا الخشب من «الديبو»، كما كنّا نسمِّي مخبأنا حيث كنّا نسخر في الليالي الماطرة، وأشعلنا النار. راح الروديو يتمشّى كعادته، وأكثرنا تربَّع على الأرض بقرب النار. هبّك كان واقفًا، فلم يجلس مع الآخرين. بقيت واقفًا واضعًا يدي في جيبي والسيجارة في فمي...

«سلاتش» و«الجردون» انتبها للأمر. راحا ينظران إليَّ باستغراب، تارة إليّ وطورًا باتّجاه الروديو الذي كان مديرًا ظهره. هذا لا يعني أنّه لم يرني. لا بدّ أنّ الروديو رآني، وأنّه يوكل أمر إجلاسي بجانب الآخرين إلى هبّك.

تحرَّك الجردون، الذي كان قصيرًا مثلي، ونزل عن الدولاب حيث

كان يجلس مفسحًا لي مكانًا بقربه... لن تزداد طولاً إن بقيت واقفًا هكذا، قال.

التفت الروديو ناحيتنا، لكنَّه بقي بعيدًا. لماذا لا تجلس، قال هبّك وهو يقترب منِّي. لم أخف من اقتراب هبّك. ليس في اقترابه منِّي تهديدًا جسديًّا. ليست الأمور هكذا بيننا.

تعالَ اجلس بقربي، قال الجردون وأضاف لكسر التوتُّر: علينا أن نفكّر بالعشاء. ما أحضرناه لا يكفي. أنا جوعان. قلت وأنا أنظر مباشرة في عينيّ هبّك: أنا لا أجلس بقربك يا جردون، فرائحتك لا تُطاق.. ثم التفتُّ ناحية الجردون وأضفت.. ثم أنا لا أجلس على الدواليب حفاظًا على خصيتيّ، لأنّي أستعملهما و.. امرأتي أوصتني بتدليلهما وتعزيزهما بالقدر المتوجّب لخصيتين من النوع الملوكي.. توقّف الشاكوش عن توزيع سندويشات الهمبرغر، فأردفت وأنا أنظر إلى هبّك: وأنا أخاف من امرأتي جدًّا، ولا أردّ لها طلبًا.. لا أجرؤ.. وإلّا فأنت يا جردون من سيجد نفسه مضطرًّا لتدليل خصيتيَّ وتشتشتهما.. كما تفعل امرأتي.. و وإذ ذاك عليك أن تتفوّق عليها لتنسيني أشياءها... أغراضها الثمينة.

أرسل الروديو ضحكة خفيفة، فانفجر الآخرون بالضحك.. قال هبّك: صحيح يا جردون يجب أن تستحمّ من وقت لآخر... قال الجردون: بئر بنايتنا ماؤها مالح.. والله جلدي قشّر وأصابتني الإكزما.. مشيتُ باتِّجاه الجردون قاطعًا نصف الحلقة. لم أجلس. ربتُّ على رقبته من الخلف بخشونة، وضاحكًا قلت له: تعرف يا أخو الشلِّيتة كم أحبّك.. فقال: أعرف. قلت له وأنا أنظر إلى الروديو: إن أراد الريِّس، وإن لم يكن جائعًا جدًّا، ترافقني في مشوار صغير وسيكون لنا

اليوم عشاء غير شكل. لست جائعًا قال الروديو، ثم أشار إلى الجردون أن يتبعني.

لن نتأخّر قلت، وأنا ألفّ ذراعي حول رقبة الجردون وبي له مشاعر عرفان ومحبّة يصعب وصفها. شددت ذراعي حول رقبته بقوّة، ثم... رحت أمشي أمامه وهو يتبعني مثرثرًا، وأنا لا أسمع ما يقول. رئتاي مفتوحتان أعبّ الهواء الربيعي الفاتر وأدخل في بطن الليل كخنجر مصقول!

... وفي تلك الليلة شوينا شاة جررناها من عند الأكراد على طرف وسط البلد. ذبحها الجردون، وساعده هبّك في سلخها، فيما كنت أتمشّى غير بعيد عن الروديو، في دخان دهن الذبيحة المحروق.

لكنّي حرصتُ على أن أنتقي بنفسي أطيب اللحم لقائدنا، بدءًا بالكبدة النيئة...

telegram
@yasmeenbook

أعرف أنّي مغرم بسامية.

وحين داهمتني الرغبة بالنوم في بيتي، لا عندها، أروح أذكّر نفسي بذلك الولع الذي تشبّث بقلبي كالحمّى لشهور طويلة، قبل أن تفتح لي بيتها وجسدها، فنبدأ نحن الإثنين بالاستكانة شيئًا فشيئًا إلى غرامنا، بالتدرُّب عليه والاستقرار فيه بعد أن غدت طقوسه شبه يوميّة. لكنّي أحيانًا أرغب هكذا بالنوم لوحدي، في بيتي.

لم تكن لقاءاتنا منتظمة قبل أن تغادر أمّ سامية البيت إلى أستراليا. كنّا نعتقد أنّها سافرت لوقت قصير، وأنّها ستعود بعد أن تضع أخت سامية المهاجرة مولودها البكر. لكن، حين طال غيابها من دون خبر، لا رسائل ولا اتّصالات، ذهبت سامية إلى مبنى البريد المركزي الكبير، حيث انتظرنا ساعات قبل أن تكلِّم أمّها بالهاتف الدولي وسط صياح الحاضرين الكثر.

جلسنا في المقهى المقابل، بعد أن رفضت سامية أن تخبرني

بفحوى المكالمة وسط الضجيج. راحت سامية تدخّن وهي تنظر إليّ بما يشبه التوجُّس. أمّي لن تعود، قالت سامية. أقنعتها أختي بالبقاء في أستراليا.. وهي تريدني أن ألحق بها.. في أقرب وقت.. وأن أترك مفاتيح البيت مع خالي أمين.

... وخالي أمين يعطيني ثمن تذكرة السفر.. ثم راحت سامية تبكي في المقهى.

لم تعد سامية تخجل من اللحاق بي إلى غرفتي أثناء وجود أبي في البيت. أجلستها على سريري، قبّلتها بقوّة، وقلت لها لن تسافري.

وبعد يومين من المكالمة في مركز البريد، أيقظني أبي من النوم. قال سامية تريدك أن تنزل إليها بسرعة. فغسلت وجهي ونزلت.

ذهب.. لكنّه سيعود، قالت سامية، خالي أمين كان هنا. قال إنّ عليَّ أن أسافر الأسبوع المقبل. أوّلاً، لأنّ بنتًا لا تُقيم لوحدها هكذا؛ وثانيًا لأنَّه لا يستطيع حمايتي. وقال إنّه بحاجة ضروريّة للبيت.

هل تبقى وتتكلّم معه، سألتني سامية، قال إنَّه سيعود بعد قليل.

لِمَ لم أضطرّ للزواج بسامية. تفاهمتُ بسرعة مع خالها. كان تاجر سلاح يريد البيت مخبأً بعيدًا عن الشبهات. أفهمته بأنّي سأحمي سامية وأحمي الصناديق التي سأفرد لها غرفة واحدة فقط. وقبل بالعمولة المتواضعة التي سأكتفي منه بها... في البداية.

كان جبانًا، وكنت مقْنعًا بالمسدّس الذي لم أحرص على إخفائه تحت سترتي الجلديّة القصيرة. افترضَ أنّني أنتمي إلى إحدى ميليشيات المحلَّة، وأنَّه تورَّط ولا فكاك له منّي.

قلت لسامية إنّي أحبّها وإنّي سأتزوّجها حين نقرّر نحن الإثنين، لا ذلك «المنيك». وصدّقتني سامية، لأنّي كنت صادقًا. فرحتْ بحبّي

وبقدرتي على حمايتها وإبقائها بقربي، ورفضي إجبارها على السفر من قبل أيّ كان. وصارت امرأتي في السرير لا بنتًا أنام معها من وقت لآخر. وصارت تغسل ثيابي وتكويها بالطبيعيّة نفسها التي تتمشّى فيها عارية في البيت... وصارت لا تزعل إن غبتُ عنها أيّامًا، ولا تحاسبني إن قرَّرتُ النوم في غرفتي فوق.

فتحتُ الباب بتؤدة، فوجدتها نائمة على الكنبة الكبيرة. رائحة السمك المقلي تملأ البيت والطاولة معدّة عامرة بما تعرف سامية أنّي أحبّ أكله.

الفجر بات قريبًا. أبي أيضًا نائم في غرفة الصالون لم يدخل غرفته. لكن أبي لم يعد ينتظر عودتي من زمان. ربّما غلبه النعاس أمام التلفزيون. لم أطفئ الجهاز حتى لا يوقظه السكون المفاجئ.

لم تكن غرفتي مرتّبة. لقد أقلع عن ذلك منذ زمن. لم يعد يجرؤ. وأقلع كذلك عن إعداد عشاء لي على صينيّة يتركها أمام باب غرفتي.

يا لهدوء هذا الليل!

ليس له أحد، قلت للروديو. ليس للخال أحد. هذا الرجل رصاصة طائشة. لا أحد يحميه. لو لم يكن مقتنعًا تمامًا أنّي أنا من يحميه لما دفع كلّ هذه المبالغ. يوصيني دومًا بالسلام على الشباب وعلى رئيس التنظيم، ويسأل إن كانوا مبسوطين منه. هذا رجل بلا أخلاق.

هذه المسألة دامت طويلاً وسننكشف، قال الروديو. حتمًا سننكشف، أجبته... لم تعد الحكاية حكاية صناديق. أهل الحيّ يعتقدون أنّه تحت رعاية التنظيم فلا يشون به وبنا للشباب، لكنّ الحكاية كبرت الآن. يريد غطاء كثيفًا بدءًا من الماء وحتى قريته في الجبل...

هل أكّد لك أنّ ما بداخل الكونتينر سلاح؟ ربّما فيه حشيش. الحشيش ليس مشكلة، أنا أصرّفه، قال الروديو. الحشيش ليس شغلته، قلت، وهو لا يحتاجني في الحشيش. ثم أضفت حانقًا: الحشيش نصدّره من هنا ولا نستورده من البحر... قمْ، حلّ عنّي، انتظرني في السيّارة.

بعد أن تزوّجت سامية رحت أسمِّيه الخال.. أهلاً بالخال... كيف الخال! أقول له دون ترحيب حقيقيّ. قلَّما أشاركه الأكل حين تعدّ له سامية الطعام، إذ كنت أحرص على الإيحاء بأنّ تلك المسافة التي أُقيمها بيني وبينه هي بالفعل احتقار صغير. أخرج من البيت قبل انتهاء زياراته، القصيرة والقليلة، مدّعيًا موعدًا مهمًّا أو عملاً ملحًّا... ثم من دون أيّ ادّعاء. كنت أعرف أنّ هذا الاحتقار الصغير يزيده احترامًا لي، وتقديرًا لأهمِّيَّتي، تلك التي كنت مقتنعًا بأنّها لي، وتلك الضروريّة لإقناعه بلزوم الثقة بي من أجل مصالحنا المشتركة. تلك الثقة التي ازدادت تلقائيًّا لحظة زواجي من ابنة أخته، إذ كان يعلم أنّ ما من أحد أو شيء يجبرني على ذلك وأنا أعاشرها، وأنّي، إذ أستر عرضه وألتزم بوعد ضمنيّ لم أقطعه لأحد، صاحب كلمة وأخلاق...

وهو، كان بلا أخلاق. خالك رجل بلا أخلاق. خالك رجل بلا أخلاق، أقول كنت لسامية بفظاظة ظاهرة فتهزّ رأسها موافقة، ومعتقدة

أنّي إنّما أعني بيع السلاح... ولا أتساءل لماذا لا تشكّك سامية بأخلاقي، بما أنّي شريك في تجارة خالها. أعرف أنّها لا تفعل. أعرف أنّ ثقتها بي كثقتي بنفسي.

لم يصبح الروديو مرافقي وساعدي الأيمن لأنّي أقوى منه، أو لأنّي أكثر منه ذكاء أو حيلة. صحيح أنّي بالعموم أذكى منه، لكنَّ ضعفه الحقيقي هو في انكشافه أخلاقيًّا أمامي. في معرفتي بكبواته وسكوتي عنها. اعتذر منّي بمرارة حين عرفت أنَّه تعاطى بالأبيض سرًّا عنّي. أخذته إلى مقهى جميل هادئ على البحر.

هل تُعطي أخاك أبيض يا روديو؟ هل تقتله بالهيروئين في حضن أمّه... نحن نتاجر بالحشيش لأنَّه كَيْف ولا يقتل. أنا أقدِّم لك سيجارة حشيش. وأنت تقدِّم لأخيك الصغير سيجارة حشيش. تتذكَّر تمامًا أنَّنا أقسمنا على عدم التعاطي بالأبيض. هل تقدِّم لأخيك شمّة أو إبرة؟

كنت منفعلاً أتنفّس بصعوبة، وكان الروديو صامتًا مطرقًا في الأرض. قلت له يجب أن تتكلّم لأفهم. ستقول إنّ المال أغواك فخنتني وخنت مبادئك. السؤال يا رفيقي هو لماذا تريد المزيد من المال؟ كم تريد مزيدًا من المال؟

تقدَّم النادل من طاولتنا بحذر رافعًا يده علامةً على استعداده للابتعاد والعودة فيما بعد. انتبهت إلى أنَّ صوتي كان عاليًا. طلبت زجاجة شمبانيا، وقلت للغرسون: حضِّر مازة على ذوقك، لأُفهمه أنّنا على ما يرام، بل وفي أحسن حال...

قال الروديو: من يتعاطى الهيروئين مسؤول. إنّه يعرف مفاعيله... ومن في رأسه دماغ...

ورغم صوته المنخفض، المتواضع والمصالح، قاطعته بحدّة...

قلت له باستطاعتي أن أجعلك تتعاطى الهيروبين غدًا صباحًا. لا تتشاطر عليّ يا بغل. غدًا صباحًا لو قرّرت أن أبيع دمك... لكنّ الموضوع ليس في من سيشتري الحقنة الصغيرة. لا تتشاطر عليّ. لماذا كنت تريد مزيدًا من المال. تريد أن تفتح مصلحة على حسابك؟

استنكر الروديو بشدّة: أنا لا أخون. قلت لقد خنتَ، فعلتها وانتهى. ليس الأمر كذلك قال باستنكار وهو يكاد يبكي. قلتُ إن بكيتَ لن تراني ثانيةً في حياتك. لا يلزمني نسوان. من قال إنّي سأبكي، قال بعنف... قلت حسنًا لنهدأ قليلاً... أنظر كم أنّ المكان جميل... ورحت أبحث عن النادل متلفّتًا في المكان. جاء النادل برفقة زميل له. فتح الشمبانيا، فيما رفيقه يصفّ الأطباق والصحون الصغيرة على الطاولة بسرعة، ثم انسحبا.

ملأت الكأسين، نقرت كأسي بكأسه الذي ما زال على الطاولة. رفعه، ثم شرب جرعة صغيرة. كُلْ شيئًا، قلت له، فأكل لقمة وتوقّف.

شوف يا كميل، قلت له يا كميل، ناديته باسمه الحقيقي الذي كدت أنساه: نحن نعرف بعضنا من زمان. منذ أيّام الثانويّة. لماذا انتقيتك دون الآخرين. لأنّك رجل نظيف. هل تعتقد أنّي لا أحبّ المال، أعني الكثير من المال. سنجني مالاً كثيرًا.. لكنّ الفرق هو بين الطموح والجشع، بين الصدق والخيانة. انظر حولك. من لنا غير بعض الآن، هكذا قرَّرنا أم أنّي غلطان. لماذا لم نلتحق بالأحزاب والميليشيات. لماذا لم نشكّل عصابة بعدَّة رؤوس. إن كان لديك أفكار قلها. قلها الآن إنّها جلسة مصارحة. غدًا صباحًا يكون فات الأوان.

ظلّ الروديو مطرقًا، ثم هزّ رأسه نفيًا.

قرَّبت رأسي من رأسه، وقلت له: لماذا ذهبتُ معك لقتل الخال؟

لو أرسلتك لوحدك أما كنتَ ذهبت؟ لم يكن الأمر محتاجًا لاثنين. رصاصة واحدة من مسدّس واحد على درج بيته كانت كافية. ودقيقة واحدة لتخرج إلى الشارع وتختفي. لم أكن هناك لحراسة مدخل البناية. ماذا كان بإمكاني أن أفعل في مدخل البناية. كنّا رأينا سائقه مغادرًا ولا مسلَّحًا يحميه...

صحيح، قال الروديو... جئت معي لنكون معًا.

عال... تمام يا كميل... ولماذا قتلنا الرجل... هل نحن هواة قتل، سفّاحون، سفّاكو دماء؟ هل سنربح مالاً من قتله؟ لا... قتلناه لأنّه كذّاب وطمّاع وبلا أخلاق. ولأنّه اخترع قصَّة الكونتينر ليوقع بنا، ويخلص من العمولة التي يدفعها لنا. شكّ في أنّنا نعمل لوحدنا وليس وراءنا أحد، فأراد أن يختبرنا. وربّما كان شكانا للمسلّحين على أنّنا نستعمل اسمهم وسطوتهم. هذا كلّه نعرفه نحن الإثنين. ونعرف أيضًا أنَّه كان من الممكن التفاهم معه بصراحة وحلّ الشراكة حبِّيًا... أو بشكل من الأشكال.

لو شكانا للمسلّحين لكانوا قتلونا، قال الروديو. ربّما، قلت، وربّما لا... كنّا دفعنا واشترينا رأسينا واعتذرنا... وقدّمنا خدمات...

لا... قال الروديو... فيها مخاطر كبيرة. كان علينا قتله وقتلناه... لماذا نعود الآن إلى حكاية الخال. المسألة انتهت وطوينا الصفحة.

لم تنته الحكاية التي بيني وبينك يا كميل. يجب أن تفهم عليّ لتكون رفيقي. أنت تدخل بيتي، تأكل من صحني وتمازح زوجتي. لست زعيمًا أنا كالزعماء. هل تعرف زعيمًا يجلس مع مرافقه هكذا كما نحن

الآن؟ ما يهمّني هو الحكاية التي بيني وبينك. لم أقتله خوفًا منه أو من الميليشيات.

لقد قرَّرتُ قتله لأنّه خال زوجتي. الوحيد المتبقّي من عائلتها في هذه الأرض.. وهان عليه أن يحرمها منّي، من الرجل الذي تحبّه والذي يحميها في عالم الذئاب هذا. وبالطبع لو تخلّص منّي كان سيذلّها.. وليس لها غيره. أنا زوجها وأبو أولادها الآتين. كانت حين يأتي تفرح به. تحضِّر له الأكل الذي يفضِّل، وهي تعرف أنّي لا أحبّ اهتمامها به. كانت تحضنه.. تجلس على ركبتيه كالطفلة الصغيرة.. تتذكّر وتذكِّره حين كان يأخذها إلى مدينة الألعاب ويشتري لها الهامبرغر بكمِّيّاتٍ، كانت سامية تقول إنّها هي الدهن الذي لصق بفخذيها.

ماذا تفعل برجل كهذا؟...

كنت أكره أن يراني الروديو، البارد الدم والأعصاب، منفعلاً هكذا. ابتلعت ما في كأسي الأخير دفعة واحدة.

لو قام من القبر أقتله ثانية، قال الروديو.

من أجل المال. من أجل المزيد من المال.. كان يريد أن يبيع سامية ويبيعني ويبيعك يا كميل. هل ترى مشكلتي؟ عذابي؟

اقترب النادل يسألنا إن كنّا نريد زجاجة ثانية. أخرجت رزمة من الدولارات، تركت نصفها على المائدة دون أن أعدّ الأوراق.

خذ السيّارة يا روديو واتركني هنا. إن تأخَّرتُ عُدْ بها واركنها أمام البيت. قل لسامية ألّا تنتظرني، واسألها إن كانت تريد شيئًا.. ثم اذهب مباشرة إلى النوم. أحتاجك غدًا صباحًا. تعال في حدود الثامنة.

ظلّ الروديو في مكانه.. ماذا تريد، سألته.

ـ ماذا أفعل بثمن الأبيض. خمسة عشر ألف دولار. أحملها إليك

غدًا؟ إنَّها في بيتي لم ألمس دولارًا واحدًا.

ـ يا حمار. بضاعتك كانت تساوي الضعف. أمّا ماذا تفعل بها: فإمّا تدحشها في طيزك، وإمّا.. ترمي بها في البحر. إرمها في البحر.

ـ أحملها لك معي غدًا صباحًا.. أعطيها للستّ سامية وهي تقرِّر.. قال الروديو مبتعدًا، ورأسه مغروز بين كتفيه.

عالم سائب. عالم سائب. فوضى كونيّة بلا روادع. حتى سوق العاهرات كان له نظام يضبطه. يا إلٰهي. لا أحد يفهمني... وما من قوّاد يتحمّل مسؤوليّة تعليمي وتربيتي!

رحت أمشي في الليل الفارغ بخطى محمومة. لم أكن غاضبًا بقدر ما كنت مكتئبًا، حزينًا. حزينًا حزنًا قويًّا. حزن من ذلك النوع الذي يشبه اليأس. اليأس من البشر وآلهة البشر.

بلى.. القتل. القتل. لا لدرء الخطر والدفاع عن النفس، ولا من أجل قصاص الساقطين والخونة والكذّابين والطمّاعين الجشعين. لن أتعرّف عليهم حتى أطلق الرصاص الرشّاش في رؤوسهم. كيف أعرفهم، أميّزهم، أفردهم، وهم العالم بأجمعه. الناس. كلّ الناس. الفرق هو في القدرة. أبي لا يقدر سوى على قتل أمِّي. أو لأنّه لا يقدر قتلها. قتلها ولم يرفّ له جفن، لم يأرق ليلة واحدة.. لم يندم. ولم يعلِّمني الندم والنسيان.

لا أحد يفهمني. لا أحد يفهمني.

لِمَ لَمْ أقتل الخال، لماذا تركت الروديو يقتله. كان عليّ أن أمسك بالمسدَّس. أن أراه بكرشه الناتئ من قميص البيجاما. بشعره المشعّث وبعينيه المفنجرتين فزعًا. أن أراه يراني. أنا. مبتسمًا ابتسامتي التي يعرفها. ورائقًا كما يعهدني، ولا أحبّ الانفعال والشوشرة والضجيج.

هادئًا. هادئًا وبعيدًا كقمر بدر فوق لجج هلعه. وهو تحتي إذ ستصطكّ ركبتاه فينزل إلى قدميّ. وأظلّ ممسكًا بالمسدّس ضاغطًا به بقوّة على عظام رأسه. وسأتركه يسترحمني. وأضغط بقوَّة على عظم رأسه ليرى الموت. ليرى أنّي الموت. ثم أطلق. رصاصة واحدة وأتأكّد من الفجوة في النخاع قبل انفجار الدم. الدم يأتي بعد ثوان طويلة. بعد أن ينطفئ الحريق. الحريق يكوي الشرايين التي تخترقها الرصاصة. وبعد ذلك بثوانٍ طويلة ينفجر الدم. من فتحتي الرأس. من تلك التي تخرج منها الرصاصة ينفجر الدم قبل انفجاره من الفجوة التي دخلت منها الرصاصة. صانعو الأفلام لا يعرفون شيئًا. أنا أعرف، إذ رأيت بأمِّ عينيّ.

حريق قويّ في ركبتيّ. أتمهّل في سيري.

كذب كلّ ما أرويه للروديو. ليس كذبًا كالكذب. لا أقصد أن أغشّه أو أن أؤذيه. فقط لا أقول له كلّ شيء. ليس صديقي الروديو. أشعر أحيان أنّه توأمي... ليبقى توأمي يجب أن يبقى مرافقي. خادمي. أو الجزء الممتدّ من جسمي إلى العالم. كعضو ليس من جسمي، لكنّي أستعمله وتقطّعني أشفار العالم لو حُرمتُ منه. وأنا مسؤول عن الروديو. مسؤول عن أخلاقه... عن ضميره وعن حفاظه على نفسه. لا أقول له كلّ شيء لأنّي أعرف أنّه لن يفهم عليّ. رغبتي العارمة بالقتل هذه سيستنسخها في رأسه شيئًا آخر مختلفًا. الروديو رومنطيقي. سيذهب إليها كالأعمى ويضيع. سيعتقدها رغبة في الانتقام ويصبح مجرمًا. قاتلاً. قاتلاً من أجل القتل. أو من أجلي.

بلى. بلى. القتل من أجل القتل. هذه حمّى تنتابني أحيانًا كنوبة... ثم تهدأ. لكنّها حين تحلّ بي كصاعقة من السماء وتملأ جسمي كهرباء بملايين الفولتات، أنصرف لها، أنقاد لها ولا أقاوم. لا

أقاوم ما أشعر أنّه سينظّفني كعمليّة الكيّ. سيطهّرني.

أراني أسير في طريق طويل يذهب حتى الأفق، على جانبيه بيوت صغيرة وبنايات قصيرة. الضوء قويّ ومشعٌّ، والألوان باهرة كما في ألعاب الڤيديو. وأنا أتقدّم بتؤدة شاهرًا مسدّسي بيدي. مسدّس كبير ذو فوهة واسعة كمدفع صغير. لكنّه خفيف جدًّا لا يتعدّى وزنه وزن برتقالة.

أسير حانقًا غاضبًا مهتاجًا لا أدري لماذا. لا أطلق الرصاص على أحد عن بعد. حين أوجّه مسدّسي باتّجاه إنسان ما يتوقّف عن السير لأقترب منه حتى ألامس رأسه بمسدّسي، ثم أطلق. وكما في لعبة الڤيديو أُحرز نقاطًا كلّما قتلت واحدًا. النقاط تسجَّل مباشرة في جسمي. أصبح أكثر طولاً. أتقدّم وأُطلق في الرأس، تغلظ عضلات ساعديّ. أُطلق في الرأس، يتّسع صدري وتنتفخ دفّتاه. أطلق، منكباي أكثر عرضًا واستدارة.

أرتوي طلقةً طلقة. وأنتفخ بقوّتي وجمال جسمي. أشعر بعرفان عارم وأنا أنقّل نظري بين الجثث. لا أشعر بأيّ تعب أو وهن أو ضجر، والطريق لا تزال تمتدّ إلى الأفق، والناس لا تزال تخرج من البيوت الصغيرة والبنايات القصيرة، ولو عالمة بما يحدث وخائفة منّي. يخرجون كأنّهم يطلبون رحمة قتلي. فقط لحظة هلع قصيرة تخرج كبرق خفيف من عيونهم قبل أن أطلق الرصاصة. وموسيقى ربّانيّة صاخبة تملأ المكان. موسيقى ربّانيّة نازلة من قبّة السماء تنسكب عليّ، كأنّها تباركني وأنا أرديهم واحدًا واحدًا.. وأغنية السفّاحين تدخل أيضًا أجسام القتلى من رؤوسهم المفلوشة، من الفجوات السوداء والحمراء...

أغنية السفّاحين؟ لست سفّاحًا.. لا يكون الربّ سفّاحًا حين يُبيد البشر ويطهّر الخليقة. لا يكون الربّ سفّاحًا، إذ يرسل الطوّافات ويفجّر البراكين، ويبعث الزلازل تهزّ هذا العالم كشجرة أينعت ثمارها حتى

الفساد الأخير. الفساد الأخير.

حريق قويٌّ في ركبتيّ. أتوقّف عن السير.

شارع الكورنيش فارغ غارق في العتمة. أضواء البلديّة مطفأة، ربّما اقترب الفجر. مطر خفيف لم أشعر به، لعلّني حسبته رذاذ البحر القريب. عالم أسود لمّاع لا لون له. نظيف.

الماء يقطر من رأسي وثيابي مبلّلة تمامًا. أشعر فجأة بالبرد. بالبرد والتعب. كما يحصل لي حين ينتهي مفعول شمّة الكوكايين. لكنّي الليلة لم أشمّ.

يبطئ التاكسي بقربي، ويرقبني السائق جيّدًا قبل أن يتوقّف.

ناولني الرجل علبة محارم ورقيّة صغيرة. إن شاء الله خير، يقول.

خير، أُجيب السائق. أخلع سترتي. أسحب كدسة محارم لأُجفِّف بها رأسي ووجهي ورقبتي، فتفرغ العلبة.

يجب إذن أن أجزل له الأجر وأبحبح البخشيش، مع أنّه لم يدفع ثمنها. إنّها من العلب الصغيرة التي توزِّعها محطّات البنزين مجّانًا لزبائنها.

المال. . . المال، أيّ هراء هذا.

من ذا الذي سيعلِّمني درسًا حفظته عن ظهر قلب. قضيت حياتي أتلقّنه، أشربه شربًا! من عذّبه المال ونقصان المال في كلّ يوم من أيّام عمره أكثر منّي؟

لكنَّ سرّه انكشف الآن لي. لم أعد ذلك الرومنطيقي. أعرف كيف يفسد المال البشر، كيف يمنحهم شعورًا كاذبًا بالقوّة والقدرة، أعرف ذلك الآن جيِّدًا، لأنّ الحصول على المال، على الكثير منه، على المزيد منه، أمر سهل. أمر سهل وطريقه مفتوحة مضاءة سالكة، كلّ الأصابع تشير إليها.

الخارطة بسيطة واضحة، والخطّ إلى المال ملوّن على حدة. خارطة توزّع مجّانًا، على الجميع. القويّ القادر والنذل الجبان يستطيعان أن يغرفا من عدول الذهب الأصفر.

وأنا والروديو نغرف أيضًا. يعرف الروديو أنّ بإمكاننا غرف المزيد، بإمكاننا بلورة الخطط وتوسيع النشاط، ولا يبدو أنّه يفهم لماذا لا أفعل. يعرف أنّه لا ينقصني الشجاعة لأقدم على أخطار أو رهانات محسوبة. يعرف أنّ بإمكاني أن أكون زعيمًا حقيقيًّا، لأكثر من شخص واحد لأكثر من مئة... بإمكاني أن أفتح حزبًا أو ميليشيا أو... عصابة. والروديو ينتظر. يعتقد أنّها مسألة وقت، وأنّي أتحضّر وأتجهَّز لذلك اليوم الآتي لا بدّ. ويراني في أحلامه وزيرًا أو صاحب شركة كبيرة... وهو نائب أو مدير الشركة. يحتار الروديو الرومنطيقي في رهانه عليّ... وأتركه يحتار... وينتظر.

سيأتي ذلك اليوم، وسأدخل حلم الروديو، لكن من مكان آخر، وبتعديلات طفيفة. تعديلات طفيفة على شكل تدرّج وارتقاء، كما يحصل لمن يصعد سلالم المعرفة، في الاطّلاع والتدرُّب والدرس. كما يفعل طلّاب الاختصاصات العلميّة.

لن أدخل كالمتسلّل. لن أدخل قبل أن أكون جاهزًا متمكّنًا عالمًا. لن أعبر عبورًا سريعًا أو أُقيم كضيف ثقيل دخيل، فيُخرجني أصحاب البيت ويلقون بي في تراب الأزقّة.

أريد أن أجلس إلى المائدة. لن أبقى ذلك اليتيم الفرحان الممتنّ للفتات. أريد أن أكون لئيمًا محترفًا بين اللئام دون أن أفقد روحي.

بل وأُريد، في نهاية المطاف، أن أكون على رأس الطاولة وأن أكسر أنا نفسي الخبز وأوزّعه عليهم.

لست بعيدًا عن ذلك. لقد بدأت صعودي... وملكوت أبي ليس بعيدًا...

غريب... لا أطمئنّ إلّا لنفسي. حين أحادث نفسي هكذا وأخطّط

في رأسي، يصبح كلّ شيء قابلاً للتحقّق.

لست حالمًا أو طموحًا أرعن. لكنَّ بي أشواقًا ورغبات كبيرة لا أعتقد أنّها مستحيلة. ليست مستحيلة. وأنا لا أخلط بين الواقع والخيال. أعرف تمامًا الحدود الفاصلة بين الحلم واليقظة، لكنّي لا أستسلم لبؤس العالم.

لا يمكن أن يكون العالم كامدًا هكذا، أن تكون الحياة على هذه الضآلة، على هذا الفقر في الخيال. إنّها تبدو أحيانًا ضيّقة، تبطئ النَفَس وتضغط على الرئتين. تبدو مشروطة بسخافات كثيرة كأنْ من خارجها، مثقلة بقوانين مختلفة يستسلم لها الجميع دون تفحّص، دون امتحان ودون مساءلة...

غير معقول. أجمل من هذا هي الحياة، لا بدّ، وأكبر. أكثر اتّساعًا ولينًا وطواعية وخفّة.

أم تراها تبدو كذلك حين أُكثر من تدخين الحشيش!

سابوا مضاااااجعهم. . واتجمّعوا يا لييييل، صحبة وأناااا معهم. . .

قلت لسامية اقلبي الكاسيت.

ـ لماذا لا تضع أسطوانة؟ الصوت أكثر نقاء في السي دي منه في الكاسيت. . . من يستمع الآن إلى الأشرطة القديمة؟ قالت سامية.

ـ الآلة الجديدة هديّة لكِ تبرمجين عليها الموسيقى التي تعجبك: سي دي، محطّات راديو، أنتِ من يستعملها فقط.

ـ ذوقي في الموسيقى لا يعجبك.

ـ لا، أنا لي حكاية مع الكاسيتات. . وأمّ كلثوم تسمعينها إمّا على أسطوانات الفينيل البلاستيكيّة السوداء، وإمّا على الكاسيتات ذوات الأشرطة البنّيّة.

ـ إذن، سأشتري لك ووكمن.

ـ لا، لا تشتري لي ووكمن. لست على هذا القدر من التخلُّف.

ـ لا، هناك الآن ووكمن بأسطوانات صغيرة جدًّا..

ـ لأنّكِ لا تحبِّين سماع أمّ كلثوم.

ـ بل لأنّك ترفض استعمال الآلة الجديدة باعتبارها لي.. مع أنّ كلّ ما لي هو لي ولك. ثم، صراحة لا أحبّ أمّ كلثوم لساعات، ليس طيلة الليل مثلك.. سأشتري لك ووكمن على الليزر: هديّة منّي.

ـ اقلبي الكاسيت يا سامية.

ـ لماذا تزعل هكذا.. أنت كلّ يوم تحمل لي هدايا..

ـ خلصنا يا سامية.. أشتري لك هدايا ما المشكلة... ماذا نفعل بكلّ هذه الأموال؟

ـ نشتري فريز. منذ أسبوع وأنا أطلب فريز وأنت تطنّش.

ـ أوّل الموسم لا تكون الفاكهة طيّبة...

ما الذي عكّر مزاجي هكذا؟! ما الذي يعكِّر مزاجي فجأة، أحيانًا، ولا أعرف السبب؟ أغضب على حين غرَّة كمن يتعثّر في خطاه. تطلع في جسمي كرة نار صغيرة تروح تدور في أعضائي باعثةً فيها فوضى غريبة. يجب أن أكون أكثر مقدرة على ضبط مزاجي.. أكره ذلك فيّ وأراه إعاقة يلزمها كبح أو تدجين أو..

ـ تسمع آخر أغنية لربيع الخولي؟ تقول سامية كأنّها تسترضيني، ثم تضيف.. أم أُعيد شريط أمّ كلثوم؟

أنظر إلى سامية الجميلة. أُطيل النظر إلى سامية لأستردّ مزاجي

الرائق. أقترب منها آخذها بين ذراعي وأشمّ رائحتها التي تشبه رائحة الخبز الطازج.. الساخن، الخارج لتوّه من الفرن.

فريز؟! لماذا فريز؟ هل أنت حامل يا سامية؟ أعدّ في رأسي سريعًا الأيّام التي انقضت على عادتها الشهريّة الأخيرة، وأتنفّس الصعداء. دلع.. هذا دلع البنات. ليس الآن. ستكون سامية أمّ أولادي.. لكن ليس الآن.

ـ أنت دلّوعة يا سامية. أتعرفين أنّك تشبهين شادية! تعرفين شادية القديمة.. أقصد في أفلامها القديمة؟

ـ القلب يحبّ مرّة.. وما يحبِّش مرَّتين.. طبعًا أعرف شادية وأعرف أنّك تحبّ أغانيها القديمة. كنت أريد أن أعملها لك مفاجأة.. أن ألبس مثلها وأغنّي القلب يحبّ مرّة، تمامًا كما تغنّيها هي في الفيلم.. أمثّلها... مع الحركات.. وبالفستان نفسه.. وكلّ شيء.

ماذا كنت سأفعل لو لم تكن سامية معي. لو لم تكن هي بالذات امرأتي. أيّة نعمة!

طرْق على الباب. أزعق فترتعد. قلتُ لكِ مئة مرّة ألّا تقتربي من الباب. ما الأمر، تقول، هذه طرقة الروديو.

أفتح، فيدخل الروديو. يضع كيسًا ورقيًّا على الطاولة ويبقى واقفًا ناظرًا إليّ ثم إلى سامية. فريز! تصرخ سامية ثم تحمل الكيس إلى المطبخ.

إجلسْ، أقول للروديو كأنّي أشكره، فيجلس.

تغمّس سامية الفريز بالسكّر وتتلمّظ. شاركونا تقول، فيبتلع

الروديو ريقه بصمت ولا أدعوه لمشاركتها. أنظر إليها وأستشعر للحياة طعمًا طيّبًا حلوًا مغمّسًا بالسكّر يقرش تحت الأضراس ويذوب سريعًا في ريق الفم.

غدًا تساعدني يا روديو في إعادة ترتيب أثاث الغرفة. خلصنا نهائيًّا من الصناديق. لا أريد بضاعة في البيت.. أبدًا.

حرام خالي.. أيّة ميتة. الله يرحمه.. تقول سامية بين حبّة فريز وأخرى.

انتقلنا للعيش في منطقة أخرى، بعيدة. كنت أشعر بها بعيدة، ربّما لأنَّها مختلفة عن الحيّ القديم مع أنّه لا تفصلها عنه سوى بضعة كيلومترات.

أسكنت الروديو في شقَّة سامية، أو بالأحرى في شقَّة أهلها. أوصيته بألّا يرمي أيَّة قطعة أثاث، وأن يضع ما يستغني عنه أو يريد استبداله في الغرفة التي كنّا نستعملها للصناديق. حرصت على إفهامه بأنِّي سأحتفظ بالمفاتيح، لأنِّي قد أزور الشقَّة في أيِّ وقت للتأكُّد من أنّه لن يستعملها مخزنًا أو مخبأ لأيِّ غرض من دون علمي.

ظللت أتردّد على الحيّ بسبب أنّ أبي رفض ترك بيته. كانت زياراتي له نادرة جدًّا. أقوم بها مرغمًا، إذ لم ينفع إلحاحي بأن يحمله الروديو بالسيّارة إلى شقَّتي الجديدة. شقَّتي الجديدة التي لم يزرها أبي أبدًا، رغم الفرح الذي كان يُبديه لدى ردّي على أسئلته الكثيرة عن عدد غرفها واتِّساع صالوناتها وإطلالة بعض شرفاتها على البحر. تسهر على

الشرفة المطلّة على البحر حين يكون الطقس ملائمًا، يسألني. وأفكّر أنّه ربّما يتخيّل شرفتي هذه شبيهة بشرفة بيت معلّمه الذي هاجر مع كامل أفراد أسرته إلى بلد خليجي.

حلوة السهرة على الشرفات الواسعة المطلّة على البحر، يقول أبي الذي يبدو، حين يتكلّم على الشرفات، ساهيًا كأنّه يحدّث نفسه. في آخر الليل، ترى أضواء المراكب الصغيرة عائدة إلى الشاطئ، يقول.. فأتساءل هل رأى ذلك من على شرفة بيت معلّمه، مع أنّه لم يكن يبيت هناك. لكنّه، حين تطول السهرات أو دعوات العشاء، كان يتأخّر في عمله.

أخمّن الآن أنّ أبي كان يبقى لوقت متأخّر ليس بسبب واجبه، إذ لم يكن مطلوبًا منه رفع المائدة وما يرافق ذلك من جلي وإعادة ترتيب وتنظيفات. فعمله كعشّيّ كان يقتصر على إعداد الأطعمة وترتيب وتزويق الأطباق. كان أبي يبقى بعد خروج المدعوّين ليختار ما يحمله إلينا من فضلات الأطايب.. وربّما أيضًا للاستمتاع بعودة المراكب الصغيرة بأضوائها، التي تشبه أضواء الحباحب الليليّة، إلى الشاطئ، من على الشرفة التي تطلّ على البحر في بيت معلّمه.

لم يكن أبي يُبدي ممانعة حقيقيّة حين أدعوه للسكن معي، أو حتى لزيارتي في بيتي الجديد وقضاء أيّام ليس إلّا. فقط يرجئ الزيارة. في المرّة المقبلة، يقول، أو في العيد أعدّ لك ولمدعوّيك أفخم مائدة. لكنّه لم يأت أبدًا!

ولم يكن أبي يسألني من أين لي هذا المال كلّه. لم يكن يعرف ما لديّ من مال، لكنّه لا بدّ يقدّر ما قد يستلزمه نمط العيش الذي أسلكه. فهو خَبِر عيشة الأغنياء وباستطاعته أن يخمّن، ولو بشكل تقريبي أثمانها...

كان الروديو يُعيد إليّ المبالغ التي أرسلها معه إلى والدي، قائلاً إنّ العجوز ليس بحاجة إليها، وإنّه وعد بأنّه سيأخذها لا بدّ في المرّة المقبلة إذ سيحتاجها على الأكيد. كان ذلك يغضبني منه. يغضبني أيضًا وصف الروديو لأبي بالعجوز. أؤنّبه على قلّة احترامه، فيعتذر قائلاً إنّي على حقّ لأنّ «الوالد» ما زال في عمر حسن وفي أطيب صحّة... أطال الله عمره.

وبالفعل، لم يكن أبي يشكو سوى من الدوالي في ساقيه. تلك الكتل من العروق الزرقاء النافرة التي كانت تنزل حتى القدمين ويخفيها جيِّدًا. إلى حين فاجأته ذات يوم بزيارتي. كان كعادته جالسًا على الأرض مسندًا ظهره إلى الكنبة، ممدّدًا ساقيه حافي القدمين. وكان يلبس سروالاً قصيرًا يغطّي أعلى الفخذين، فاستطعت أن ألحظ كتل الدوالي الكثيرة حتى قبل أن ينهض واقفًا، على ضوء البلديّة وقبل أن أشعل النور.

ما هذا؟ قلت له... فقال كمن يتضجَّر من الكلام في موضوع لا يستحقّ التوقّف عنده: هذا ڤاريس.. عندي ڤاريس من زمان. منظرها بشع، لكنّها لا تؤلمني. فقط عليّ ألّا أُطيل الوقوف أيّام الحرّ الشديد.

لم أكن أنصحه بزيارة الطبيب حتى لا أضطرّ إلى مواجهة رفضه الأكيد. رفضه ثم صمته. كأنّنا كنّا متّفقين ضمنًا على عدم إطالة الحديث بيننا. وكنت، حين أجد الأوراق النقديّة التي أتركها في زيارة سابقة ما زالت مكانها تحت مفرش طاولة السفرة، كنت أتجنَّب إثارة الموضوع. فهو لو سألته لماذا ترك المال في مكانه كلّ تلك المدّة التي تفصل بين زياراتي، لن يقول إنَّه يرفض المال. سيقول إنَّه لم يضطرّ لصرفه، وإنَّه يتركه تحت المفرش هكذا... وحتى يحتاج إليه.

لا يجد أبي، حين أزوره، موضوعًا يحادثني فيه، أو خبرًا يرويه لي

أو حادثة يطلعني عليها أو سؤالاً عن حياتي يطرحه عليَّ بحشريّة الأهل الذين يتقدَّمون في العمر. طيلة حياته، كان قليل الكلام. لكنّه يبدو الآن قليل الاهتمام بما يجري حوله وله.

حين آتي لزيارته وينتهي بدقائق قليلة من ترحيبه بي، يقوم أبي إلى المطبخ كأنّه يشغل نفسه بحركة ما إذ هو يعرف أنّي لن آكل عنده. مع هذا يروح يصفّ أطباقًا فارغة على طاولة السفرة كأنّه يحضِّر لي وجبة قد أعدّ لها. يظلّ يتنقّل بين غرفة السفرة والمطبخ مُحدثًا جلبة حتى أقول له إنّي مشغول ولن أبقى لآكل عنده، ولا يصرّ هو على إبقائي عنده. وغالبًا ما أخمِّن أنّ مطبخه فارغ، وأن لا أكل لديه لا في البرّاد ولا في الفرن حيث كان يضع ما لا يحتاج من الأكل إلى تبريد. إنّ مطبخه فارغ تمامًا، وبالقدر الذي يُكثر فيه من فتح بابيّ البرّاد والفرن.

حين أراه هكذا قليل الاهتمام بالأشياء وبي، آتي على سيرة سامية. أقول له: سامية تسلِّم عليك وستأتي قريبًا لزيارتك، تأتي معي أو يصطحبها الروديو. يقول أبي: الله يسلّمها، ولا يسألني مثلاً إن كانت حبلى، أو إن كنّا ننوي إنجاب الأطفال كما يسأل الأهل الذين يتقدّمون في العمر.

في كلِّ مرَّة أزوره، يبدو بيت أبي أقلّ مساحة ووسعًا عنه في المرّة السابقة. صغيرًا. لم أكن أجد بيتنا ضيِّق الحجرات، ضئيلاً هكذا. هل كان ذلك بسبب صغر جسمي، أم لأنّي أعيش الآن في شقّة كبيرة واسعة تتجاوز مساحتها أضعاف مساحة بيت أبي، أم أنّ ذلك كان بسبب حركتنا التي كانت تملأ البيت حين كنت ولدًا وكانت أمِّي ما تزال في البيت؟

غريب كيف أنّ البيوت تبدو أقلّ مساحة حين تفرغ من ساكنيها، أقول في نفسي، مع أنّك تفترض العكس. ثم أقول إنّي في الحقيقة لا

أتحرَّك، حين أزور أبي في بيته، سوى في مساحة صغيرة، بين الصالون وغرفة السفرة. فأنا لا أدخل غرفتي أبدًا. لا أريد أن أعرف أنّه أبقاها لي كما كانت، لكن نظيفة مرتّبة. تلك النظافة وذلك الترتيب اللذان تتّخذهما غرف الموتى، ولا أدخل غرفتي أبدًا لأنّي لا أحبّ أن أرى نفسي ولدًا فيها. وأنا لا أشعر بالأسى على موت ذلك الولد.

ولا أدخل غرفة أهلي، لأنّي لا أريد أن أرى غياب أمّي. لا أريد أن أعرف إن كان أفرغ الخزانة الكبيرة من ثيابها، ولا أن أرى الثياب ما زالت هناك معلّقة على مشاجبها أو مطويّة على الرفوف الصغيرة تحت المشاجب.

لا أريد أن أعرف إن كان نسيها تمامًا وأفرغ الخزانة من ثيابها، أو إن كان يتذكَّرها كلّ مساء ويبكي وحيدًا وبصوت مسموع على الوسادة التي كانت لها على يمين السرير.

لا أريد أن أعرف، لا ندمه ولا نسيانه وغفران نفسه وحلّها من أيّة ذنوب. لا سهوه ولا مرارة تذكّره.

أنظر إلى ساعتي وأقف. أقول حسنًا، عليّ الذهاب الآن، فلا يستبقيني. لا يستبقيني ولا يسألني عن موعد زيارتي المقبلة.

تحملني العاصفة من شقّتي إلى بيتنا. إلى بيت أمّي وأبي، وإلى بيتي صغيرًا. يحضر بيتنا، في العاصفة، لا بيت أبي كما أدعوه الآن. غصبًا عنّي، رغم أنفي، في عكس اتّجاه الحبل الغليظ الذي أجرّ به رأسي. ولا تجرؤ سامية على التعليق حين ترى أنّي أبالغ في عيار شمّة الكوكاكيين فتخرج من الغرفة.

العاصفة التي لا تدوم في العادة طويلاً في مدينتنا، تكسرني نصفين. أرى أشياء لا معنى لها، تافهة، صغيرة، تعذّبني عذابًا مقرّحًا ولا أقوى على إزاحتها. حتى الكوكايين لا يبرّد رأسي ولا يقوى على دفعها، بل يحملها أحيانًا إلى منطقة الكوابيس، في الظلمة التي لا يضيئها شيء. في الهلع الأسود.

أرى رؤوس الأشجار تلتفّ بقوّة على نفسها وتضرب الزجاج كالشياطين. تفلش خياشيمي رائحة كستناء مشويّة، تصعد إلى نخاعي

كسكّين ينشب فيه بآلاف الشفرات. تعمي عينيّ الأبخرة المتصاعدة من كؤوس القوّيصة الممزوجة بالنعناع البرّي، وأسمع صوت أبي، الذي لا يضحك، يقهقه عاليًا بصدى طويل كشرّيري أفلام الرعب. تقول لي أمّي إنَّه صوت الرِّيح لا قهقهات أبي. تكسر البسكويت الذي حشته براحة الحلقوم وتضعه في فمي كأنّها تعطيني دواء. وتهزّ لي برأسها مشجّعة إيّاي على المضغ. أبدأ بالمضغ. القانيليا مرّة كالعلقم، لكنّي أستمرّ بتكسير البسكويت بين أسناني لأصل إلى راحة الحلقوم السكَّريَّة المعطَّرة بالمستكة. تقرّب أمّي من فمي كأس قويصة القصعين فتغشيني أبخرتها الممزوجة برائحة النعناع البرّي القويّة، لكنّي أرتشف من الكأس.

تنتفش راحة الحلقوم في فمي وتكبر فجأة ملتصقة بفكّي وحلقي، قاطعة الهواء عن المريء.

تكبر كرة راحة الحلقوم باضطراد حتى يصبح فمي بحجم غرفة الصالون، ويلتصق رأسي الكبير بزجاج النوافذ التي تضربها رؤوس الأشجار، وكأنْ على عينيّ الهائلتين مباشرة. وقبل أن أختنق تمامًا تروح كرة راحة الحلقوم تصغر وتتضاءل في فمي حتى تغدو بكبر حبّة العدس، ثم يصغر رأسي ويصغر حتى لا تعود أمّي تراه على كتفيّ، حتى تقرّب من الفم كأس قويصة القصعين الممزوجة بالنعناع البرّي.

يا الله. يا الله. أحاول ألّا أصرخ. أحاول أن أنسى نفسي ولدًا، وأن أرى أنّي رجل بالغ الآن بحجم رأسي الذي لا يتغيّر. لا يكبر حتى يطرطق زجاج النوافذ، ولا يتضاءل حتى يضيع كحبّة العدس على كتفيّ اللذين يلامسان الجدارين المتقابلين. أبتلع ريقي. أحاول ابتلاع كرة راحة الحلقوم الصغيرة..

إنّها العاصفة التي لا يقوى عليّ أحد أو شيء غيرها. ترميني في الكوابيس التي لم تعبر يومًا طفولتي كغيري من الأطفال والأولاد. تعذّبني هكذا حين تُعيدني إلى سنّ الرابعة وأنا أبرطع في الثلاثين. تطعمني مرارة ما كان حلوًا لذيذًا في ذاكرتي البعيدة... ذاكرتي الراكضة المبتعدة التي لا أحبّها كثيرًا. تفسد ما كان طيّبًا فيها. تنزل طفولتي عليّ كسياط القصاص.

كأنّي مرتكب إثمًا أو نسيت ما ارتكبت يداي. أيّ إثم يقاصصني الربّ عليه وأنا لم أره يومًا. لم أسمعه. لا هو ولا غيره. وأنا مؤمن فقط بي. بنفسي. بما رسمته بنفسي ولنفسي من الخطأ والصواب، من الإثم والفعل الحسن، من الرذيلة والفضيلة، من الثواب والعقاب. ليس ذلك غرورًا أو جهلاً. وقفت على أبوابهم كاليتيم. ردّوني. قالوا إنّ البضاعة مطروحة وعليّ شراء ما أريد. لكنّي كنت أريد بضاعة نظيفة، تلائمني، على مقاس احترامي لنفسي، تخلّصني أنا، لأنّي لم أكن أرى خلاصًا عند الآخرين. عند من اشتروا بعملة فاسدة، مفسدة. عند الفاسدين الكذّابين الخونة المزوّرين. الأسواق المليئة لا تعني أنّ العملة ليست مزوَّرة وأنّ البضاعة ليست فاسدة.

ما الذي يعذّبني هكذا وأنا ملك؟ ما الذي يعذّبني هكذا كأنّي مرتكب إثمًا؟ من يدلّني على إثمي حتى أفهم؟!

لن تلبث العاصفة أن تهدأ. فهي لا تدوم في العادة طويلاً في مدن كمدينتنا. لن ألبث أن أعود إلى شقّتنا الجديدة الواسعة تاركًا بيت أهلي. تاركًا بيت أهلي إلى بيت أبي. بيت أبي الذي قرّرت أن أباعد ما بين زياراتي له... وأن أفكّر ربّما بألّا أزوره فصاعدًا أبدًا. يشجّعني على ذلك عدم اهتمام أبي بي. ونسياناته لمواعيد زياراتي الأخيرة التي... يبدو أنّها لا تترك أيّ أثر لديه حتى يتذكّر متى كانت تلك الزيارات، لا

يلومني على تباعدها ولا يسأل عن أسباب طول غيابي.

لا يقلق من طول غيابي ولا يدعوني لزيارة مقبلة قريبة... حتى إنّه في زيارتي الأخيرة لم يدخل المطبخ. بقي جالسًا على الأرض مسندًا ظهره إلى الكنبة ممدّدًا ساقيه. لم يخفِ دواليها ولم يقف سريعًا لاستقبالي. وقبل أن أقول له: حسنًا عليّ الذهاب الآن، قال وهو ينظر في اتّجاهي، لا في وجهي، كما يفعل العميان: جاء أيُّوب عدّة مرّات وسأل عنك.

الماء النازل من السماء يحجب الرؤية تمامًا. ليل بلا قمر وبلا أنوار عموميّة. لا سيّارات على مقربة نستهدي بأضوائها ولا بيوت نسترشد بها لنتميّز أطراف العمران والمناطق الآهلة.

كمِّيَّة الحشيش التي دخّنتها عطّلت بوصلة الاتِّجاهات في رأسي. لا أدري منذ متى تسير بنا السيّارة هكذا.

كأنِّي استيقظتُ فجأة حين توقّفت السيّارة. قال الروديو وهو ينظر أمامه: غرقت الدواليب في الوحل. وحين أبقى وجهه مقابل الليل ولم ينظر إليّ، فهمت.

كان صوت تنفّسه مسموعًا رغم طرطقة المطر القويّة على هيكل السيّارة الضخمة. ذلك بسبب السمنة، رحت أفكِّر، أكثر منه بسبب الانفعال. بسبب السمنة.

كان غريبًا أن أفكِّر بسمنة الروديو. لم يكن يملأ فراغ رأسي سوى

انتفاخ جسمه واستداراته، وكمِّيّات النقانق التي كان يبتلعها مشبعة بالدهن. كان غريبًا جدًّا أن تحضرني الآن صورته القديمة، حين كنّا في الثانويّة، حين كان يجمعنا في سيراننا الليليّ، حين كنّا نلتقي حول الشواء في الفلاة وهو ينظر إلينا من البعيد ولا يأكل إلّا القليل. كم كان الروديو رهيفًا، ممشوقًا! كم كان جسمه أنيقًا، جميلاً رغم الندبات الظاهرة على جلد وجهه وذراعه اليمنى من أثر حادث الموتوسيكل! أراه على درّاجته الناريّة. أتخيّله عليها محدِّقًا أمامه، عاقدًا حاجبيه كما يفعل الآن، مستعدًّا للانطلاق كالشهاب المضيء. أتخيّله على درَّاجته الناريّة، حابسًا أنفاسه، صامًّا أذنيه، لا ترى عيناه سوى نقطة مرتجَّة في الأُفُق.

ـ فظيع هذا المطر، قلت، فلم يلتفت ناحيتي.

ـ لن يجدونا إن لم تضئ أنوار السيّارة، قلت، فلم يلتفت.

كان غريبًا ألّا أفكِّر بنفسي، بما سيحصل لي. ألّا أشعر بالخوف، وأن تغلبني، ربّما بفعل الحشيش، صور الروديو القديم الذي لا أرى منه في هذه العتمة سوى خطّ نصفه الجانبي متقطّعًا، بين التماعة جبينه وأنفه واستدارة بطنه القريب من المقود، وانعكاس ضوء شحيح على سوار ساعته الذهبي. لا أدري من أين يأتي هذا الضوء الشحيح.. ربّما لا توجد الظلمة الدامسة تمامًا إلّا في الجحيم. في الجحيم كما كنت أتخيّله صغيرًا، ولا أراه مضاءً بلهب النيران التي ستأكل أجسام الخطأة العراة. أرى الجحيم، كنتُ، ظلمةً دامسة وهلعًا لا يخرج من البطون أو الحناجر. عراة عميان وبكم.

أراه سمينًا ويشقيني ذلك كأنّه خطأ منِّي وإهمال... وأتساءل لأوّل مرّة إن كنت أكبره سنًّا. أحسب أنّي أكبره سنًّا، وأنّي لم أهتمّ به كما كان يجدر بي. هكذا شعرتُ فجأة كأنِّي أخوه الكبير الذي أخلّ بواجب

البكوريّة. . . ونحن يتيمان بلا أهل. هكذا. وابنا زنا. هكذا في هذا الليل البهيم.

قلت له في المرّة الأخيرة إخرس يا طبل، أبعد صحن النقانق من تحت ذقنك، تبدو في الأربعين ولا تستطيع حماية كرّ حمار وأنت هكذا، لكنّه لم يغضب. لا يغضب منّي. أبعد صحن النقانق وراح يقرش خيارًا فنضحك معًا، لأنّي أنا نفسي لست ذلك الطربون الممشوق. . .

كان الروديو يحبّني ويعود تكرارًا إلى موضوع الڤيلّا، قائلاً أنْ لا أحد يستطيع حمايتي في بناية لا نعرف أيّ أقرع يدخلها ولا أيّ أقرع يسكنها أصلاً. ليس من أجل المزيد من المال أو التهريب من البحر إلى الڤيلّا، بل لأنّه كان يريدني زعيمًا معلنًا، ولأنّ اللعبة كبرت. الميليشيات يقتتلون ككلاب الشوارع الشرسة. إنّهم لا شيء، فزّاعة. لكنّهم لن يتركونا لشأننا. . يجب أن نرمي لهم حصّتهم، كان يقول.

يحبّني الروديو، ونضحك كثيرًا معًا حين نقضي السهرات الرائقة، ندخّن الحشيش ونتفرَّج على أفلام الڤيديو الكوميديَّة البلهاء، حيث يضرب الممثّل العملاق بود سبنسر مهاجميه براحة يده الضخمة على رؤوسهم، فيما رفيقه الخفيف الحركة تيرانس هيل يتفادى الضربات بسرعة تشقّ الهواء قبل أن يقضي على المهاجمين بنزق عجيب. وهو بعكس رفيقه، يبقى ضاحكًا وتلتمع عيناه الزرقاوان الفوسفوريّتان. .

رحت أضحك بصوت عالٍ. أقهقه. فالتفت إليّ الروديو فزعًا. قلت له لا تخف إنَّه الحشيش. تبًّا إنَّه الحشيش. تلزمني شمّة لأستفيق. غريب رأس الإنسان يا رجل! فأنا لا أشعر بأيّ خوف. الخوف يحمي الإنسان، يشحذ ردود فعله. لكنّي لا أستطيع أن أُقنع نفسي بالخوف منك يا كميل.

ربّما لأنّي ناديته باسمه الحقيقي، التفت الروديو صوبي وقال: لا داعي للخوف. يريدون التفاوض معك ومعرفة بعض الأشياء.

لم أخسره تمامًا، قلت في نفسي. أن يكذب الروديو في هذه اللحظة عليّ يعني أنّي لم أخسره تمامًا. فهو يعرف أنّي لا أحمل سلاحًا، ونحن الاثنين نعرف أنّه أقوى منّي جسديًّا. ومع ذلك يكذب عليّ. أن يكذب عليّ يعني أنّه خائف منهم. وأنّه لم يبعني إليهم مبادرًا مختارًا. ويعني أيضًا وفي كلّ الأحوال أنّه لن يقتلني بيده.

لقد تورّط وانتهى الأمر. لا ينفع الآن الكلام. إنّه خائف أكثر منّي.

كأنّ الدم يتخثّر في رأسي ولا يدور دورانه. وتداهمني رغبة قويّة في النوم. هذا الليل الدامس الظلمة، وطرطقة المطر المنتظمة الوتيرة. كلّ هذا النعاس الآن.

أنزل بجسمي على مقعد السيّارة حتى تغرق رقبتي تمامًا في مسند الرأس. أفكّر أنّها نعمة من الربّ أن ينزل فيّ هذا النعاس. دعوة أمّ رؤوم. فلو كنت متيقّظًا مستنفرًا لسيطر عليّ الخوف. الرعب. ولبحت لهم بكلّ ما يريدون.. حتى قبل أن يبدأوا بالتعذيب والتهديد بالقتل. خائفًا سأقرّ بأسراري، مخبأ الأموال، وأسماء وأرقام هواتف مفاتيحي. وساعات قليلة ليتأكّدوا من صحّة اعترافاتي قبل قتلي.. هذه الساعات هي أكثر ما أخشاه. لا القتل.

لكنّي نعسان ولست خائفًا. هي نعمة من الربّ لا تآمرًا من رأس الروديو أن أكون دخّنت هذا القدر من الحشيش.

ـ لكنّ سامية لا تعرف شيئًا، قلت للروديو وأنا أغالب خدري اللذيذ.

ـ مفهوم، أجاب الروديو باختصار شديد، ممعنًا النظر أمامه في الليل.

يعرف الروديو أنّي حين أقول له إنّ سامية لا تعرف شيئًا، فإنّ هذا يعني أنْ لن أقرّ بشيء، وإذن لا لزوم للتعرّض لسامية بعد قتلي. رغم ذلك لا يبدو مستغربًا مندهشًا، هو الذي يعرف كم أنّي ضعيف أمام الألم، والتعذيب الجسدي إذن. كيف لا يبدو مستغربًا من قراري أن أُقتل بعد تعذيب طويل لا أقول فيه شيئًا. ولا يبدو مضطربًا، إن أنا فعلت ذلك، من توريطه بعدم فائدته، وبالتالي تعريضه لأذيّتهم إذ ذاك لا محالة. وقد تذهب عدم فائدته لهم إلى القرار بتصفيته.. إذ لماذا يتركونه بعد ذاك على قيد الحياة؟ قد يقتله أحدهم هكذا، نرفزة، انتقامًا. كما تُسحق حشرة...

حسنًا. ها أنا قبل موتي بقليل أفكّر بأشياء تافهة، وأستنفر انتباهي ويقظتي بدل أن أستسلم للنعاس الجميل. وبدل أن أحاول استعراض شريط حياتي، كما يقولون في الأفلام، حين يكون البطل في مواجهة موته القريب. لاستخلاص العبر مثلاً...

أستدير ناحية النافذة، ظهري للروديو... أنتظر مرور صور حياتي فلا أرى شيئًا. لا صور، لا شريط، لا شيء. أقول ربّما عليّ أن أستحضر وجه أمّي ليكون موتي أقلّ شراسة... لكن وجه أمّي يبقى بعيدًا، نائيًا مبهمًا في هذا الليل. أقول إنّي ربّما لم أحببها كفاية، وكما يجدر بابن وحيد حتى وإن لم يكن ابنًا بارًّا.

لا وجه يحضرني في هذا الليل الأخير... وتأخذني على نفسي شفقة من وحدتي، وأقول ربّما هكذا يموت الناس، وبطل الفيلم أيضًا، إذ ليس المخرج، الذي لا يعرف، هو من سيموت.. وأمّي أيضًا في المستشفى العمومي، ربّما مات رأسها في هذا الفراغ الأسود دون أن

تنجح في استحضار وجهي، كما كنت أتخيّل حين أفكّر في موتها وحيدة في عنبر المستشفى العمومي، في عتمة انقطاع التيّار وهي حزينة لأنّي بعيد عنها، لا تستطيع حتى التلويح لي لتوديعي وساعدها معلّق بالإبرة المربوطة بالأنابيب، حيث يتخثّر دمها ممتزجًا بالبول.

. . . وعليّ إذن أن أُبعد هذه الفكرة الحزينة لأنّها لا تساعد على النعاس والنوم. إنّها فكرة مضرّة أن أروح الآن أتخيّل موت أمّي الذي لم أكن أتذكّره في الحقيقة كثيرًا.

. . . والأجدر بي إذن أن أفكّر بشيء مضجر، بحركة تتكرّر في رأسي هكذا من دون معنى. هي المعاني أخطر ما يتهدّدني الآن، والبحث عن المعاني هو أكثر ما يعرّضني للتهلكة والعذاب. ربّما هذا البحث العبثي هو أكثر ما عذّبني في حياتي، دون معرفة منّي، دون قصد أو إرادة. ركبني المعنى، والبحث عن المعنى مثل لعنة ربّانيّة. . .

. . . والأجدر بي الابتعاد بسرعة عن أفكار المعنى التي سوف تحقنني بالقلق. والأرق. ولأفكّر بحركة مضجرة تتكرّر. بصورة بلا قاع، كموج البحر مثلاً. موج البحر. وأنا ممدّد في الرمل الفاتر. قبالة الأفق الأحمر. بعد أن قلّ السابحون وتفرّقوا. بعد أن أكلت كلّ ما تبقّى من فاكهة لن أُعيدها معي إلى البيت وارتوى قلبي. بعد أن خفّت حدّة القيظ مع المغيب. بعد أن كشفت عن كرشي الصغير، إذ لم يعد هناك بنات على مقربة منّا. لم يعد هناك بنات يبتسم لهنّ. . .

طلقان ناريّان. . . وأستيقظ، ثم لا أنتبه إلّا وأنا في الأرض. في الوحل. لم أره يفتح باب السيّارة قبالتي. كان الروديو يجرّني من ياقتي، من الخلف وأنا مستلق على ظهري، وجهي إلى المطر. . لا أستطيع فتح عينيَّ لأتبيّن ما يجري أو لأرى من يجرّني هكذا. لكنّه كان، لاهثًا فوق رأسي، يردّد بصوت مبحوح يشبه الأصوات التي تُصدرها الحيوانات

المذبوحة: بسرعة يا ابن الله. بسرعة. قف على قدميك.

. . . والماء المنصبّ من السماء يوقظني أيضًا، فأقف على قدميّ. لكنّ الروديو يظلّ يشدّني، أو يجرّني حين أقع ممسكًا بي من أعلى ذراعي، أو من قميصي على الصدر، أو رافعًا إيّاي من حزامي الجلدي كولد صغير.

اتركني، لا تخفْ أقول له. لا أرى شيئًا، يقول بصوت خفيض وبالبحّة نفسها.

إنّنا الآن على منحدر صعب مائل بشدّة، ننزلق بسرعة على أرضه الصخريّة. تضرب وجوهنا الأغصان فنتمسّك بها. نتمسّك بالأغصان ونركض بالعرض. والأرض الصخريّة تمتدّ ولا تنتهي. ثم تبرق السماء فيرفعني من تحت إبطي وننزلق معًا حتى حافّة الطريق.

على الطريق، نرى أضواء سيّارتهم تصعد باتّجاهنا. نركض باتّجاه العِرضان ونتابع نزولنا في الغابة. نتابع نزولنا حتى نصل إلى طريق إسفلتيّ تبدأ بعده المناطق المأهولة. بيوت متفرِّقة غير مُضاءة، يليها تجمُّع سكنيّ تتحرّك حوله السيّارات التي نرى من موقعنا أضواءها القليلة المتناثرة فنعرف أنّنا بتنا في الهزيع الأخير من الليل.

في كشك البستاني البعيد عن مبنى الڤيلّا الفارغ، أضأنا الشمعة الوحيدة التي وجدناها على الطاولة الواطئة المكسوّة بالغبار. لم نَرَ شيئًا من حديقة الڤيلّا لنعرف إن كان هناك من يعتني بها، إن كانت الڤيلّا مأهولة. تسلّقنا البوّابة الحديديّة الكبيرة ولمّا لم نسمع نباح كلاب أو صوت طلقات ناريّة، خلعنا باب الكشك ودخلنا. بقينا واقفين حائرين في أمرنا حتى قال الروديو إنَّ علينا الخروج قبل الفجر، إذ لا بدّ أن تكون ڤيلّا بهذا الكبر وفي منطقة كهذه محروسة شتاء بانتظار سكّانها

المصطافين... وإذن، فهي لأُناس مهمّين، لزعيم مهمّ... وإذن، فالحرّاس المسلّحون ليسوا على مبعدة. ثم نفخ الروديو على شعلة الشمعة بقوّة فأطفأها.

لن تنفع تمثيليّة الطلقين الناريين في مقعد السائق، قلت له وأنا لا أراه، يعرفون أنّنا هربنا.

طبعًا يعرفون، قال الروديو. وسيزداد غضبهم الآن. نسخر منهم بصراحة.

ثم قال: يجب أن نخرج من هنا سريعًا ونصل البيت قبلهم. سيأخذون القليل من الوقت ليتأكّدوا. ليبحثوا عنّا على مقربة من السيّارة، عن جثّة أحدنا.

ـ أيّ بيت؟ لماذا نذهب إلى حيث يلحقون بنا؟

ـ إلى بيتك. لنصطحب المال والباسبورات... وسامية.

ـ المال ليس مخبّأ في البيت.

ـ لا أقصد كلّ المال... أيّ مبلغ... علينا أن نغادر البلد.

ـ لماذا لا نذهب إلى بيتك. أليس معك مال هناك؟

ـ بلى، لكنّهم الآن هناك. بقي إثنان منهم في البيت منذ مساء أمس بانتظار عودتي. لا تتذاكى عليّ الآن فلا وقت لدينا. هذا مسدّسي. خذْ مسدّسي.

أعطاني الروديو مسدّسه، ووقف قبالتي.

لماذا لم تقل لي، قلت له بصوت هادئ. لماذا لم تقل لي فورًا إنّك وشيت بي. إنّهم اتّصلوا بك وإنّك اضطررت للوشاية.

لست أنا من وشى بك أيّها الأبله. المسطول. الأطرش. لست

بحاجة للوشاية بك. أعرف أين تخبّئ كلّ أموالك. أعرف أنّها في غرفتك في بيت أبيك. كان باستطاعتي سحبها والفرار، وربّك نفسه لن يجد لي أثرًا. لا أنت ولا هم تستطيعون اللّحاق بي. أطير إلى آخر الدنيا قبل أن تستفيقوا من النوم. قبل أن يرمش أيّ منكم أكون اختفيت. تعتقد أنّي حمار أيّها الحمار. قفْ بسرعة لنخرج من هنا... اسأل أباك إن التقيتما بعدُ ذات يوم في هذه الدنيا.

ـ أبي؟

ـ لقد قتلته في بيت أبيك. أمام عينيه. منذ خرج من أقبيتهم وهو يتردّد على أبيك، يسأله عنك. يدور حول البيت في الليل. كلّمته عدّة مرّات فنفى. حذّرته، فقال إنّ الأمر يتعلّق به وبك وأنْ لا دخل لي. وأنْ لا دخل لاعتقاله ولمن اعتقلوه بالتقصّي عنك. كان يلعب على الجميع. تأكّدت من عهره وخيانته بعد أن قتلته. ذلك أنّ اختفاءه أوصلهم إليّ. لم يصلوا إلينا إلّا عن طريقه. بعدما اختفى راحوا يراقبونني. وليس بسبب الجثّة، للتحقيق مثلاً، لأنّي أخفيتها. حتى مساء أمس سألوني عنه، إن كنت رأيته. أجبتهم ببساطة كمن لا يعرف شيئًا عن أيّ شيء، أنْ لا. قال أحدهم أفلتناه، لكن هذا لا يعني أنّ الحكاية انتهت.

إخلع سترتك. سنتكلّم في كلّ شيء فيما بعد. أنظرْ كيف ما زلنا نقطر ماء. علينا أن نجد سيّارة بأيّة طريقة، أو هاتفًا قريبًا لتكلّم سامية. فورًا.

على الباخرة حصل كلّ ذلك. على الباخرة التي أقلّتنا إلى قبرص. اعتقدت سامية أنّه برد البحر لكنّها كانت الحمّى.

الحمّى التي نزلت فيّ كما كان صوت الربّ ينزل في القدِّيسين، فيحوِّلهم هكذا في لحظات إلى قدِّيسين وتخرج ألسنة من اللهب تطفو فوق رؤوسهم وترافقهم حتى بعد موتهم... تمامًا كما في أيقونات القدِّيسين.

لم تحوّلني الحمّى قدّيسًا. لكنّها، في ليلة واحدة، غيّرتني. انقلبتُ رجلاً آخر لا أعرف كيف. دخلتُ الباخرة رجلاً وخرجت منها رجلاً آخر. كانت بي قوّة قضيت كامل حياتي أبنيها حجرًا حجرًا، كأنّ ليلة الباخرة دكّتها بضربة واحدة وأطاحت بها.

قلبي القويّ وقع منِّي. رحت أرتجف خوفًا كلّما اقترب منِّي أحد. صرت أتلفَّت حولي، أتخيّل أنّ رجلاً يقف ورائي في الظلمة سيضربني على رأسي من الخلف. رجل لا أعرفه ولا يعرفني ولا سبب مفهومًا

يدفعه لضربي. يضربني على رأسي معتقدًا أنّي شخص آخر... أو لأنّه مجنون، عقله هربان في رأسه، فالت في جمجمته. أو لأنّ الشرّ أكله. رجل أكل الشرّ عقله.

قلبي القويّ وقع منّي وطاح غبارًا. غبار ارتفع وذاب هكذا مع رذاذ البحر.

اقترب منّي طبيب الباخرة قائلاً إنّها الحمّى. لم أتركه يلمسني. قال اتركوه إنّه يهذي. أعطوه هذه الحبوب، ثم سوف يهدأ حين تنخفض الحرارة.

أيّة حمّى... أيّة حمّى يا الله.

إنّه أبي. أبي أدركني وحلّ فيّ لا بدّ. حلّت فيّ روحه بعد أن أُزهقت. لا بدّ.

في ليلة الباخرة، قُتل أبي فحلّت روحه فيّ. دخلتني دافعة روحي إلى الخارج، إلى هواء البحر الرطب. روحي التي خرجت من أذنيّ، وسمعت طنينها العنيف حتى إنّي وضعت أصابعي في أذنيّ صارخًا من الألم، ثم نظرت إلى أصابعي متوقّعًا أن أجدها مصبوغةً بالدم.

قلت لسامية قتلوا أبي، فابتعدت عنّي خائفة، مبتسمة لي ابتسامة غريبة لم تنجح في إخفاء رعبها. ابتعدتْ وصارت تطلّ عليّ من بعيد لترى إن كانت الحمّى ذهبت عنّي. إن كان هذياني عابرًا. تقترب قليلاً مادّةً يدها بالحبوب التي أعطاها إيّاها الطبيب، والتي رفضتُ ابتلاعها. ثم تبتعد.

قتلوا أبي انتقامًا منّي. قتلوا أبي، لأنّهم وجدوا المال في بيته فأزاحوه، قتلوا أبي لأنّهم وجدوا الجثّة في غرفتي.

جثّة من؟ جثّة من وجدوا في بيت أبي؟

أعمل رأسي بجهد استثنائي لأتذكّر اسمه. لأسترجع قسمات وجهه، علّ ذلك يساعدني في استحضار ذلك القتيل. يصرعني الصداع، لكنّي أستمرّ في البحث عنه. ذلك القتيل الذي سأستردّ معه فتات ذاكرتي القريبة، وتلك البعيدة أيضًا حتى أفهم ما حدث لي، حتى أحاول تركيب ذلك الحطام في شكل مفهوم. حتى لا يستمرّ هذياني هكذا فيعتقد الجميع، وبخاصّة سامية، أنّي مجنون. حتى تقترب سامية منّي. الخائفة. الضائعة. والوحيدة الآن إلى هذا الحدّ.

لم أعرف أنّه الفجر الآن، إلّا حين وجدت الناس ما زالوا نيامًا والمساحات المأهولة في الباخرة خالية. لا يساعدك البحر. لا يدلّك على شيء. يبدو لك الفجر كأنّه المغيب. لا فرق.

لا أفهم البحر ولا أيّ شيء آخر. لم أسافر من قبل. لا في البحر ولا في السماء. لم أغادر تلك البلاد ولا حياتي الصغيرة. القليلة. التي انتفخت كورم خبيث. كبالون الكوابيس التي كانت ترعبني. كبالون يفقع الآن بين يديّ ولا يبقى غير الرعدة. غير قطع المطّاط المتناثرة. الناقصة. استفاقة تشبه انغراز الإبرة المفاجئ. صوت الإنفزار. الدويّ الصغير لتلك الفرقعة والفراغ الذي تلاها. الفراغ.

ما الذي تبقّى في رأسي غير صوت الهواء الذي يأتي من داخل جمجمتي لا من موج البحر. رحت أسأل نفسي إن رسب في رأسي شيء ممّا تعلّمته في المدرسة مثلاً. إن كنت أتذكّر شيئًا عن الحرب العالميّة الثانية، مثلاً. عن ترسيمة تركيب الخليّة، مثلاً. عن المعادلة الكيميائيّة للماء أو للكربون، مثلاً. عن إعراب الجملة الإسميّة، مثلاً. فأجد أبيض واسعًا ممتدًّا إلى ما لانهاية تحت هذه العناوين الأليفة. تمارين فاشلة.

غريب. غريب. ماذا فعلت كلّ هذه السنين؟ كنت مجتهدًا جدًّا بشهادة أقسى المعلّمين وأكثرهم تطلّبًا وأشدّهم تعلُّقًا وحبًّا بضمير التلقين

والمعرفة المهنيّ. سنة بعد سنة بعد سنة وأنا خلف طبقتي الأماميّة، عيناي وأذناي مفتوحة تتابع المعلِّمة والمعلِّم. ذهني يسجِّل ويحفظ في النهار وفي الليل، حتى أغفو أحيانًا على الطاولة دون عشاء، فوق دفاتري. أو أُعيد كتابة ما استظهرت بإصبعي في الهواء أو على بياض السقف وأنا ممدّد في السرير.

إنّ وأخواتها تنصب المبتدأ وترفع الخبر... أم العكس. للماء جزيئتان من الهيدروجين وواحدة من الأوكسجين... أم العكس؟

أهو فخر الدين المعني الكبير الذي كان دمويًّا مجرمًا بشاربين مخيفين أم تراه الأمير الآخر... الشهابي. ما اسمه الصغير؟ ذلك الذي كان يقتّل خصومه. أيُّهما كان درزيًّا وأخواله من توسكانا حيث نُفي. توسكانا؟ في إيطاليا؟ أخواله طليان.

التوندرا. عين داره. عزٌّ بعد فاقة الأمير علّاقة. أرتحششتا. أرخميدس. بلازما. بريفيكس ـ سوفيكس... تقفز الألفاظ إلى رأسي دون رابط أو معنى، هكذا محاطة بفراغ كبير. مقطوعة ناقصة. ذلك لأنّي لم أكمل علمي. لم أكمل شيئًا. غريب. لم أكمل شيئًا.

أبتعدُ عن حافّة الدكّة وأجلس مسترخيًا على الكرسيّ البحريّ الطويل.

بماذا تنفعني الآن هذه الجردة الحزينة. ولماذا تنفعني ذاكرة لا تنفع؟ ذاكرة لم أحملها إلى نهايتها، إلى جدواها، فسقطت كما تسقط القشور منسلخة عن جذع النموّ وعن خطّ الحياة، متناثرة كالغبار الخفيف على تراب الأرض دون ضجيج، دون انتباه من أحد.

بطيء تقدّم هذه الشمس التي لا أراها، في سماء لا أراها. الضباب النازل لا يترك للرؤية سوى أمتار قليلة. هل الفجر هو دومًا

هكذا في عرض البحر. ضباب وبخار ورذاذ، وكلس أبيض رماديّ في العيون.

العمى، تهديك إيّاه الحياة أحيانًا. تهديك عدم الرؤية. تقول لك الحياة أحيانًا: نَمْ. أغمض عينيك. لا يجديك أن تفتحهما. لن ترى شيئًا. تقول لك الحياة أحيانًا: أغمض عينيك. نَمْ.

تلازمني سامية كظلّي. تلازمني كظلّي، وحين تراني مستغرقًا هكذا في أفكاري، شاردًا، ناظرًا أمامي في أفق البحر، تعتقد أنّي مقهور على مغادرتي البلاد، أنظر باتّجاهها من اليابسة التي تقابلها، من الشاطئ الذي لا يفصله عن شاطئها سوى ليلة في باخرة بطيئة.

معنا كلّ الوقت، تقول سامية. وأنا أعرف أنّها في داخلها متحرِّقة لمغادرة قبرص إلى أهلها في أستراليا. وأعرف أيضًا أنّنا لا نملك كلّ الوقت ولا الكثير منه، لأنّ المال الذي حملناه معنا قليل وسينفد بسرعة.

ولا شيء يضطرنا للذهاب إلى أستراليا، تقول سامية. وهي تحسب أنّي أخشى أستراليا لأنّها بعيدة جدًّا، لأنّها الطرف الآخر للأرض، أعني بالنسبة للبلاد. لأن لا أحد يعود من أستراليا. إنّها أرض الهجرة الأكيدة النهائيّة. وهي تحسب أنّي أخشى أستراليا لأنّي أخشى أهلها. أعني أنّي لا أريد أن ألجأ إليهم هكذا، فارغ اليدين، ليطعموني وليجدوا لي عملاً

معهم... وأنا لا أُجيد أيّة مهنة، لا أتقن أيّ عمل أقتات منه.

لكنّ الحياة مؤمّنة هناك، تقول سامية. وهي تحسب أنّها هكذا تهوّن عليّ الأمر. تريدني أن أتخيّل أنّ العمل مع أهلها في محطّة البنزين أو في السوبرماركت اللصيقة بالمحطّة شيء سهل، معطى، لا يتطلّب إتقان مهنة أو حتى البحث عن مسكن.

ثم ننتقل بعدها مثلاً للعيش لوحدنا ونفتح مصلحة خاصّة بنا، تقول سامية.

وحين تجد سامية أنّي ما أزال أنظر في البحر مستغرقًا في أفكاري لا أُجيب، تستدير هي أيضًا ناحية البحر وتتوقّف عن الكلام. ودون أن أنظر إليها، أعرف أنّ عينيها ممتلئتان الآن بالدموع.

وأعرف من دون أن أنظر إليها أنّها لن تنتظر طويلاً. إنّها ستتركني بعد وقت قصير وتذهب إلى أهلها. ليس فقط بسبب فقري الذي تحسبه لا بدّ عابرًا، بما أنّي رجل قويّ لن يلبث أن يجد المال والسبيل إليه... بل لأنّها سرعان ما سوف ترى أنّي غير ذلك الرجل الذي أحبَّته. وديع آخر. فارغ من كلّ ما كان فيه، وغير ممتلئ بأيّ شيء آخر في مكان ما سقط منه وذهب. وأنّي لو أردت أنا نفسي أن أعرِّفها بالوديع الآخر لما وجدت شيئًا أقوله. ولا كلمة واحدة.

مضت الأيّام والشهور ولم تتركني سامية، ولم تذهب إلى أهلها في أستراليا. مضت الأيّام والشهور وأنا أستيقظ كلّ صباح لأجدها ما زالت بقربي. بجانبي. معي. وأقول إنّه الصباح الأخير، لأنّها ما زالت تعيش على الذكريات. على ذكريات ما كنتُ، آملةً بأن يعبر ما هو عابر وأن أعود ذلك الرجل الذي أحبّته. أقول إنّه الصباح الأخير، ثم أستفيق في الصباح التالي وأجدها لا زالت بقربي. كما البارحة. في جهتها المعتادة من السرير. وتغطّي وجهها بذراعها من الضوء القوي وتطيل النوم اللذيذ حتى ما قبل الظهر بقليل.

ولا أتخيّل تركها إيّاي أو هروبها منّي في وضح النهار. لا أتخيّل أن تقوم، أمام ناظريَّ، إلى جمع أغراضها في الحقائب مادّة يدها لتسلّم عليّ وتودّعني وتتمنّى لي السلامة والتوفيق. لن تجري الأمور على هذا النحو. مستحيل. حين ستتركني سامية سيكون ذلك في الليل وأنا مستغرق في النوم. ستأخذ القليل الضروري من حوائجها، تحمل حقيبة

يدها، تغلق الباب بهدوء وراءها، تنزل الدرج بخفّة إلى الشارع، تشير بيدها فيتوقّف التاكسي.. ثم تختفي.

أقول في نفسي إنّ ذلك ربّما كان أفضل لي، وإنّه ينبغي أن أتمرّن في رأسي على ما سوف يحصل بشكل أكيد حتى يكون وقعه أقلّ وطأة عليّ. لكنّي أجد نفسي مستيقظًا عند الفجر باحثًا عنها بقربي.

ولا تعرف سامية، التي تكره أن يدخل ضوء الصباح غرفتنا ويوقظها، أنّي أُبقي الستائر منفرجة قليلاً لأراها حالما أفتح عينيّ، عند أوّل الضوء. وأدّعي أنّ العتمة الكالحة إنّما تشعرني بالاختناق وتمنعني من معرفة نهاري من ليلي.

دائمًا أصحو قبلها. أصحو في الفجر، حتى ولو لم أنم سوى ساعات قليلة. أروح أدور في الشقّة متعطّلاً مكتئب المزاج غضبان مقهورًا، لا أعرف لماذا. يكون الفجر ثقيلاً مرًّا مع أنّ سامية ما زالت هنا. ثم الصباح فارغًا كئيبًا بطيئًا. وكأنّ فوّهة الليل لا تنغلق إلّا قبل أن تفرغ روحي بقليل. قبل أن ينشف قلبي بنقطة واحدة. من النقطة الأخيرة.

كلّ فجر هو امتحان عسير. كلّ صباح معركة مريرة.

وأنا ممدّد على الكنبة في الصالون يخطر لي أنّ فرار سامية سيكون على الأرجح انعتاقًا لي، خلاصًا أرجوه ولا أعترف به لنفسي. يخطر لي أنّ امتحان الصباح لا يخلص إلى نتيجة، لأنّها تستفيق وتلحق بي فلا أصل إلى نهايته، تقطعه عليّ قبل أن يكتمل، ذلك الامتحان.

تلك الدائرة الصغيرة الغائرة في معدتي تشبه الفم المفتوح. تشبه الوجع، لكنّها ليست وجعًا. كأنّها فتحة شافطة لا تتوقّف عن الامتصاص، ولا تمتلئ. علقة ملتصقة بباب المعدة أو بطرف القلب

السفلي. غثيان. غثيان طويل دون قيء يخرج.

ثم أقول إنّي أُكثر من شرب القهوة على ريق بطني. علّي أن أقلّل من شرب القهوة. أو أن آكل شيئًا، حبّة فاكهة، أو أشرب عصيرًا.

أو على الأقلّ أن أتنفّس بعمق. أخرجُ إلى البلكون. أستند إلى حافّته الحجريّة قليلاً، أتفرّج على السيّارات، أتسلّى بتعداد ماركاتها، مخمّنًا سرعاتها القصوى وعدد الأحصنة وسعة الخزّان وأسعارها، بالدولار والليرة. وحين أرى سيّارة صاحب مطعم البيتزا تبطئ سيرها بحثًا عن مكان ملائم يركنها فيه أرتدّ إلى الوراء، أجلس على الكرسيّ البلاستيكي رافعًا قدميّ على الطاولة الواطئة.

لا أريد أن يصبّح أحد عليّ. لا بلغة غريبة... ولا بلغتي.

لا كاليميرا ولا غودمورنينغ... ولا صباح الخير. وكم هي صدفة حسنة أن تحبّ سامية النوم ولا تستفيق إلّا قبل الظهر بقليل. لا أحبّ أن يصبّح أحد عليّ.

أعود إلى الكنبة في الصالون. لماذا كلّ فجر هو امتحان عسير؟ لماذا كلّ صباح هو هكذا معركة مريرة؟

لكن لماذا ينتحر الناس في هدأة الفجر، في سلام الفجر؟ أبفعل التعب إثر عذاب الليل الطويل، يسقط اليأس على قلوبهم كما تسقط ثمرة يانعة... ثم من تلقاء نضجها تستجيب لجاذبيّة الأرض. تستسلم لثقلها وتوعز لعقصتها بالانفلات، لبرعمها القديم بالانعتاق من ذاكرة الشجرة. ترفع الثمرة ذراعيها للسماء، تبتسم لسلام الفكاك من جاذبيّتين إلى جاذبيّة واحدة، وتنزل. تغمض عينيها وتسرح في الهواء، تنزلق على حرير الهواء كلّ تلك المسافة العظيمة بين الغصن والتراب. إلى التراب.

في هدأة الفجر تبترد حمّى المعارك، يتوقّف القتل، ويذهب المنتحرون إلى موتهم.

في هدأة الفجر أيضًا يأتي البكاء. يبكي الناس على موتاهم مطلقين قلوبهم على وقع الأجراس أو أصوات المؤذّنين.

وأنا أدور حول موت أيُّوب، حول مقتله. أدور أدور ولا أصل. أدور. أدور حول مقتل أيُّوب. ولا أصل. أيُّوب. أيُّوب. أيُّوب...

وفي الليل أيضًا، أسهر على البلكون لوحدي بعد أن تنعس سامية وتضجر من قلّة كلامي، فتدخل الغرفة لتنام. أو تخرج.

. . . وكلّما دخلت سامية الغرفة تاركةً إيّاي لوحدي، يعاودني الشعور بالذنب، لأنّ الأيّام تمرّ وتتكرّر الليالي التي لا أضاجعها فيها. . . حتى إنّي نسيت كم من الوقت مرّ علينا لم ننم فيه مع بعضنا. . . ثم أقول في نفسي لا بأس، ربّما سيسرِّع ذلك في اتّخاذها قرارها بتركي.

أَما آن الأوان بعد لتذهب هذه المرأة إلى حياتها، إلى أهلها وناسها. أَمَا آن الأوان لتدرك هذه المرأة لامعنى وفائها وإخلاصها لرجل غائب، غير موجود؟ إلى متى ستبقى هكذا بقربي، لا تريد أن تتخلّى عن رَجلِها وهو في الضرّاء؟ ولأنّ المرأة الشريفة لا تترك زوجها في العسر بعد اليسر. . . أفكار فظيعة!

أو هل تراني سأضجر أنا نفسي من سامية وأتركها ذات فجر؟ فقد بات يرهقني قليلاً حبّها للحياة، وتفاؤلها بأنّ الأيّام الآتية ستحسّن الأوضاع. كلّ الأوضاع. وخاصّة وضعي أنا.

يُخيِّل إليّ أحيانًا أنّ سامية تراني كغرض مطعوج، كورقة مجعلكة مفروكة، يكفي القليل من الجهد لتقويمه أو لتمليسها. أو كأنّي بالون ذابل يكفي القليل من الهواء لنفخه، ليعود مستديرًا لامعًا بألوانه. أو كأنّي زهرة أو نبتة خضراء نسي أصحاب الشقّة ريّها، يكفي القليل من الماء والانتباه لتعود إلى زهوها الأخضر اليانع فتنشر الانتعاش والرونق، بل... والسعادة.

حرام سامية! أقول في نفسي مثقلاً بذلك الشعور بالذنب، يخالطه شيء من الشفقة وما يشبه الضيق...

هذه هي الحقيقة، أقول في نفسي، يبدو أنّي بدأت أضيق بها. أسهر لوحدي بعد أن تنام، وأستفيق قبلها بساعات لأكون لوحدي. يبدو أنّي بدأت أضيق بها، لأنّها ضاعت من مكانها كبقيّة أشياء حياتي. فحين صرت أفتقد أمّي، بدأت فكرة أن أجعل سامية أمًّا تراودني جدِّيًّا، ليكون هناك أمّ بقربي. فضلاً عن أنّ سامية كانت رفيقتي منذ كنّا جيرانًا. نتسلّى كثيرًا معًا، نخرج ونضحك ونسمع موسيقى. وسامية صارت حبيبتي، ورائحتها كانت تشقّ قلبي من الرغبة وحبّ الجنس وفعله ليلاً نهارًا، ونهارًا ليلاً...

الآن... في أيِّ مكان أضعها. في أيّ مكان أضع أيّ شيء. ويبدو أنّي بدأت أتعب من اللِّحاق بها، من طاقتها القويّة التي، يا حرام، تحاول جاهدة أن تكبحها لتبقى ملائمة لي، ولتكون مفيدة في جرِّي إلى الأمام. كأنّها العربجي الذي ينزل من مقعده ليربّت على رقبة البغل، ويُعطيه الوقت والحنان ليعود عن حَرَنِه، إذ على العربة أن تواصل

سيرها إلى الأمام على طريق الحياة التي.. لا تتوقّف.

قانون الحياة ألّا تتوقّف. فإن كانت الحياة هي الحياة، فكيف تتوقّف؟ حزمت سامية الحقائب إذن دون أن تلحّ عليّ أو تتأكّد من رغبتي في الانتقال إلى «ليماسول». كأيّ عربجي يتقن مهنته ويخلص لقوانينها، كانت سامية تريد أن تخفّف عنّي؛ فالبقاء في «لارنكا» يعني أنّنا ما زلنا ننتظر قراري بالسفر إلى أستراليا. كأنّنا في لارنكا قاعدون في محطّة عبور، وهي تريد أن تُفهمني بأنّها لا تضغط عليّ، لا بالنسبة لأستراليا ولا لغيرها من البلدان، خاصّة بعد أن رأت هروبي من كميل ومن دعواته للسفر معه إلى ألمانيا، حيث أقرباء له يتاجرون بالسيّارات المستعملة. فهمتْ أنّي لا أُطيق حتى رؤيته، فصرفته عنّي، وسافر دون أو أودّعه.

وليماسول مدينة جميلة، غير لارنكا؛ وفيها الكثير من اللبنانيين المستقرّين الذين، تفكّر سامية، سيكونون أصحابي الجدد، بل قد يساعدونني على إيجاد عمل، مثلاً.. ثم بعدها نفكّر. بعدها نفكّر، نأخذ وقتنا بالتفكير إن كنت أريد الذهاب إلى أستراليا والاستقرار هناك... وتفكّر سامية أيضًا أنّي ما زلت متعلّقًا ببلدي، لا أريد في الوقت الحاضر أن أبتعد عنه كلّ هذه المسافة، وأن أهاجر... وأنّه يلزمني الوقت لأبتعد عن بلدي على دفعات، لأقطع صلة الحنين إليه والتعلّق به... وهي هنا، بقربي، لتساعدني على ذلك... وأيضًا أيضًا أيضًا لكي أنسى أصحابي القدامى.. هؤلاء الذين خانوني، هؤلاء الذين طعنوني في الظهر، فأوعزتُ بقتلهم. اضطررت لذلك، وقلبي منفطر حزين...

يا إلٰهي.. أيُّ سوء فهم هو هذا؟! يا أمّي.. أيّ عذاب؟!

أطفئ ضوء البلكون. أجلس، أقف على الحافّة المعدنيّة. أغلق باب الصالون الزجاجيّ الذي يفصله عن البلكون. هكذا، أصبح في الخارج. خارج الشقّة. هكذا إن أردت الطيران من الطابق الرابع إلى الإسفلت... هكذا، إن أردت الطيران لا يسمع أحد صوت الإرتطام. الطيران. أو لعلّه عذاب الفطام.. كم مرَّ عليّ ولم أشمّ شمّة واحدة. نصف غرام كوكايين... أو حتى حشيش، سيجارة حشيش. واحدة. مرصوصة جيّدًا!

يهتزّ زجاج الباب ورائي بقوَّة. تضربه سامية بكوعها. أفتح وأُضيء النور. إفتح فمك. إفتح فمك بسرعة. أفتح فمي، فتدسّ فيه سامية ورقة الخسّ المحشوَّة بالتبُّولة. كيف!؟ تقول وهي تلحس أصابعها ضاحكة... اعتقدتَ أنّي ذاهبة للنوم، وأنا في المطبخ أُحضِّر لك أفخم عشاء يا غشيم. مفاجأة!

telegram
@yasmeenbook

تضيق مساحة الشقَّة الآن. فالبرد القارص بات يمنعني من القعود في البلكون لأُدير ظهري إلى الداخل. ونقلتْ سامية الطاولة والكراسي البلاستيكيَّة إلى الصالون. وضعت مفرشًا زهريًّا على الطاولة، وصارت تستعملها لفطور الصباح، قرب باب البلكون الزجاجيّ، حيث الإضاءة أجمل، تقول سامية.

وكلّ يوم، تقريبًا كلّ يوم، تكرِّر سامية أنّ إيجار الشقق المفروشة في ليماسول رخيص جدًّا في الشتاء وحتى يبدأ موسم السياحة، لتطمئنني بأنّ ما بقي لدينا من مال يكفي لبداية الصيف.

وكلّ يوم، تقريبًا كلّ يوم، تُعيد سامية على مسامعي محاسن الفطور. حين تستفيق، تبدأ بالسؤال: هل تناولت فطور الصباح؟ ودون أن تنتظر ردِّي، تروح تنتقل بين المطبخ والطاولة البلاستيكيَّة الزهريّة المفرش، مُبديةً دائمًا مزاجًا رائقًا، من المفترض أن يفتح شهيَّة الواحد على الأكل...

أنظر هذه القريشة. شوف كيف هي بيضاء، رغم أنّ كلّ خيرها فيها.. طعمها طعم القشطة، والعسل، ليس في بلادنا عسل كهذا... هنا لا يغشُّون في الأكل، ثم هل رأيت في حياتك صفار بيض بهذا اللون؟! تعال كُلْ معي، قُمْ، هيّا كُلْ معي. أهمّ شيء فطور الصباح! وإلّا فستزداد آلام معدتك، لا تكن عنيدًا.

... واستدارت سامية. تزداد استدارةً كلّ يوم... تقريبًا كلّ يوم.

صار لها ثديان كبيران، يهبطان إلى معدتها حين تكون بلا سوتيان. ومعدتها الآخذة بالانتفاخ صارت تملأ رقَّة خصرها وتصله بخطٍّ مستقيم إلى وركيها... أشعر بالخجل حين أراها هكذا، وأشيح بنظري عنها قبل أن تنتبه، خشية أن ترى في سمنتها الطارئة هذه سببًا في ابتعادي عنها وفي عزوفي المستمرّ عن ممارسة الجنس.

كأنَّ سائلاً سامًّا يضرب جوانب معدتي بعنف، حين أرى خيط العسل اللّامع على ذقن سامية، وهي تتلمَّظ لإثارة شهيَّتي... وحين أرى أطراف أصابعها مغمّسة بصفار البيض، تطلع زنخة الزبدة المقليّة إلى خياشيمي، ويلفّ رأسي ما يشبه بخار المعادن المحترقة، فأخاف أن يُغشى عليّ من انقباض الدم في أمعائي وأسارع بالخروج قائلاً لسامية: سنتغدّى معًا... سأمشي قليلاً ولن أتأخَّر.

وهي تعرف أنَّ أبعد نقطة عن الشقّة أصل إليها هي الحديقة الصغيرة، بعد أن أجتاز الطريق العامّ بمائتي متر تقريبًا إلى الغرب. أي أنّ سامية تستطيع أن تراني من بلكون الشقّة، وتستطيع أن تناديني من هناك إن كانت ضجّة مرور السيّارات خفيفة.

لكنّها لم تناديني ولا مرَّة واحدة من بلكون الشقّة، وأنا صرت أنسى سامية، حين أجلس في شمس الشتاء الخفيفة في حديقة الأطفال

الصغيرة المهجورة دومًا.

ليس أكثر ملاءمة لفراغي من فراغ هذه المدينة. شيء غريب!

إنَّها مبنيّة لموسم الصيف وللسيّاح، وحين تفرغ في الشتاء، تبدو كإناء دلقت ما فيه هكذا دفعة واحدة حتى آخر نقطة أو آخر ذرّة... هززته جيِّدًا ثم أعدته إلى مكانه. هكذا. وترى أهل المدينة القليلين، الذين بنوا مدينتهم للغرباء العابرين، كأنَّهم يأنفون مدينتهم ويغادرونها على طريقتهم هم أيضًا. لا يخرجون من بيوتهم، لا يتمشُّون في الشوارع. لا مقاهٍ أو سينمات. لا حدائق عامّة أو مخازن كبرى. فقط قد تصادفهم في تجمّعات صغيرة يوم الأحد أمام الكنائس بسيطة البناء، التي تبدو كأنّها اقتُطعت من ريف بعيد ووُضعت هناك. حتى البيوت المسكونة لا يميِّزها عن تلك المهجورة سوى مدخلها النظيف، الذي لا تغطّي عتباته بقايا أوراق الشجر والأتربة... وطريق الشاطئ الذي بُنيت المدينة من أجله هو الأكثر فراغًا ووحشة، ولا تطأه قدم أو يتفقّد جنباته صاحب ملكيّة. كلّ ما فيه مقفل. المطاعم وصالات الألعاب والنوادي والعلب الليليّة. حتى الأضواء البلديّة مطفأة ليلاً. وإسفلت طريق الشاطئ يكتسي بالحشائش المتيبِّسة والأغصان الصغيرة المتكسِّرة، وتغطّي الأرصفة والمصطبات الواسعة طبقة خفيفة من الملح الذي يتسرَّب أيضًا إلى الأقفال الغليظة، ويضع صدأه الأحمر على مهل فوق الزيت القليل الذي سكبه التجّار الموسميُّون قبل الذهاب إلى الشتاء.

ذهبت مرَّة واحدة إلى شارع البحر، ولم أُعِد الكرّة.

داخلني خوف عجيب. قلت في نفسي: هنا إن وقعت مذبحة لا يعرف بها أحد. قتيل أو عشرة. برصاص مسدّس أو رشّاش أو حتى بالقنابل. وتبقى جثث القتلى حتى الربيع في مكانها، أو حتى بدايات الصيف. رحت أمشي بسرعة قاطعًا شارع الشاطئ بالعرض. قلبي

يضرب كطبل، وأنا أركض في ساحات الفنادق إلى داخل المدينة. أركض بكلّ ما أوتيت من قوّة حتى وصلت إلى حديقة الأطفال الصغيرة قرب البيت. جلست على المقعد الحجري ألتقط أنفاسي، لاعنًا الساعة التي خطر لي فيها أن أتمشّى في ذلك المكان. وقاطعًا العهد على نفسي ألّا أبتعد مترًا واحدًا عن طرف الحديقة.. أبدًا.

ذلك اليوم، رحت أفكّر جدّيًّا بأنّه بات عليّ أن أوسع للشخص الآخر الذي أصبحتُه. بات عليّ أن أرتّب مكانًا حقيقيًّا لخوفي، أن أقرّ بجبني وبتلك الهواجس التي لا أنجح في إقصائها أو محوها من رأسي. علينا أن نعترف ـ يا وديع ـ أنّنا صرنا بالفعل ما صرنا إليه. إنّ الأمر ليس حمّى عابرة، سنستفيق منها ذات صباح؛ أو كابوسًا سنصحو منه هكذا ذات صحو جميل... بات علينا أن نعترف أنّ ذلك الشخص الذي أشعر به فجأة ورائي، رافعًا يده ليضربني بقوّة على رأسي، سوف يرافقني عمري حتى نهاية أيّامي. إنّ قلبي سيظلّ ينتفض، ورقبتي ستظلّ مستشعرة كهرباء الضربة التي ستلهب عينيّ. سأظلّ هكذا، أرفع كتفيّ بقوّة، وأضع كفّي على أسفل رأسي لتلقّف الصفعة. ثم أستدير مذعورًا ولا أجد أحدًا. ذلك الأحد الظلّ الذي سيعود.

الذي سيعود حين أنسى قليلاً. حين لا أكون متنبّهًا. حين أسهو أو أشرد في الهواء. حين أنعس وأنزلق منهكًا إلى النوم.

ذلك اليوم، في حديقة الأطفال المهجورة، وأنا أحاول استرداد أنفاسي مبعدًا عن رأسي تلك الهواجس، مردِّدًا في قلبي أنّها إنّما هي هواجس وتخيُّلات، ولو أنّها ستعود على الأكيد، وأنّ عليّ أن أتمرَّن على تدجينها بما أنّها ستعيش معي وسأعيش معها، إذ لن ينفع أن أقنع نفسي أنّها ستختفي كالأوهام التي تمحوها الحقائق.. الحقائق التي لا أعرف منها أو عنها شيئًا.. ذلك اليوم، وفيما أنا كذلك، وقع نظري

صدفة على طابة منفّسه، فارغة كأنْ تمامًا من هوائها، تخفي الوحول المتيبِّسة لونَ بلاستيكها الأصلي. طابة أضاعها ولد في الصيف الماضي بين الحشائش التي وقعت عنها الآن في الشتاء وكشفتها. طابة صغيرة من البلاستيك، من تلك الطابات رخيصة الثمن التي يتلهّى بها الأولاد الفقراء عن مثيلاتها المطّاطيّة السميكة التي لا يفرغها من هوائها شيء. وهو بعد أن أضاعها، عاد حزينًا باكيًا إلى البيت تجرّه أمّه جرًّا، لا شيء يعزّيه ولا كلامًا لطيفًا واعدًا يخفّف من مرارة فقده.

. . ولا وصف لحزني. تنهمر الدموع من عينيّ. أبكي ربّما كما لم أبكِ يومًا في حياتي من قبل. أبكي وأجهش في البكاء، لا يهمّني إن رآني أحد المارّة أو إن رأتني سامية من بلكون الشقّة.

أبكي. أبكي من حرقة قلبي شوقًا لأيُّوب. كم أشتاق أيُّوب. يا إلٰهي. لا أريد شيئًا من هذا العالم سوى أن أرى وجهه.

أيُّوووووب، أناديه والمخاط ينزل من ذقني، يسيل ممتزجًا بلعابي السائل على ثيابي وإلى الأرض بين قدميّ. وأسأله: ماذا نفعل هنا يا أيُّوب؟ ماذا نفعل بعد الآن في أيّ مكان من العالم؟ أبكي بالصوت المسموع، وأسأله: أين طابتنا يا أيُّوب، أين أقدامنا وأزقّتنا. أين أنت؟ ومع من تراني ألعب اليوم، ومن يرافقني، يُعيدني يا أيُّوب مساء إلى البيت. . .؟ من يجرّني بيدي إلى البيت حين سيهبط الليل الذي يهبط كلّ ليل. . .؟

لكنّي دائمًا أتماسك في البيت. أتماسك حتى تبتعد عنّي سامية. حتى تتركني، وحتى لا تبقى بقربي، باعتبار أنّي حزين وضعيف الرأس والأعصاب والقلب، وإذن ينبغي عليها ألّا تتركني. أن تلازمني هكذا، وتُعنى باستمرار بي بما أنّي أحتاجها. تُعنى باستمرار بي. باستمرار.

وأنا باستمرار، ويومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر لا أنام معها. وبات لا يهمّني أن أدافع عن نفسي. بات لا يهمّني أن أكون فقدت رجولتي إلى الأبد. رجولتي. يسمُّون إنتصاب ذلك الشيء رجولة!

لا يهمّني إنتصاب أيّ شيء فيّ... وعلى سامية أن تحزم أمرها إن كان ذلك الشيء يهمّها، ينقصها، أو هي تحتاجه أو تشتهيه. وعلى سامية أن تحزم أمرها كذلك، إن كانت تريد عضو رجل آخر، من قريب أو من بعيد، في أحلامها واستيهاماتها الليليّة، أو في الحقيقة. مع ممثّل سينما جميل، أو مع بائع القريشة والبيض في الدكّان القريب!

وأكرهها... ينتر جسمي القرف من جسمها حين، نائمة، أو مصطنعةً النوم، تندسّ فيّ في الليل. أحاول ألّا أدفعها بغنف، أن أعود إلى نومي بعد أن أُبعدها عنّي برفق. لكنّي أقفز نافرًا منها، حين أستشعر رعشة اللذة تهزّ جسمها هزًّا، حين يرتجف جسمها بنشوة سريعة ملتصقًا بي ثواني قليلة، أقوم إلى الصالون. يطير النعاس من رأسي. أجلس على الكنبة متفكّرًا في ما عساني أفعل لنفترق. ليذهب كلٌّ منّا في حال سبيله، في حال ربّه.

وقبل أن أعود إلى النوم على كنبة الصالون، أقول في نفسي إنّ المال الذي معنا لن يلبث أن ينفد.. وستذهب سامية إذ ذاك لا بدّ إلى أهلها في أستراليا، بعد أن تيأس من اصطحابي معها إلى هناك... وآملة، لا بدّ، بأنّي سألحق بها ذات يوم قريب. إذ هكذا، سأعدها بأغلظ الحِلفان، على المطار أو على المرفأ وأنا أودِّعها حزينًا، مغرورقتان عيناي بالدموع. ماذا تراني أفعل هنا لوحدي، سأقول لها، فقط رتِّبي الأمور هناك قليلاً وسألحق بك. وستطلع سامية في الطائرة أو في الباخرة.. وسترحل.

أبالغ أحيانًا في الضيق بها. فالمخلوقة لا تلازمني كما أدّعي. أكذب على نفسي، وأخترع أسبابًا لعصبيّتي ولنزوعي الشديد للبقاء لوحدي ولعدم الكلام. أبالغ كثيرًا، فهي تتركني أجلس بالساعات في حديقة الأطفال الصغيرة، ونادرًا ما تطلّ عليّ من البلكون، أو تناديني لأعود إلى البيت بسبب البرد الشديد في الخارج. ومساءً أيضًا، تقريبًا كلّ مساء، تخرج سامية من البيت حين تراني مسمَّرًا إلى التلفزيون القبرصي، لا أفهم شيئًا ممّا يقوله باليونانيّة. مسمّرًا هكذا بالساعات، وأنا لا أفهم كلمة يونانيّة، ولا أحاول البحث عن قناة ثانية تبثّ بلغة

أفهمها. لا بدّ أنّها تفسِّر ذلك دعوة صريحة لها لتركي وشأني، أو ربّما تقول في نفسها إنّي إنّما أدفعها بذلك دفعًا للخروج من البيت.

وتخرج سامية من البيت، لأنّها تعرَّفت إلى ناس من بلادنا صاروا أصحابها. التقتهم لا بدّ في السوق، عند الجزّار أو بائع الجبن والقريش القريب. أو ربّما في مركز الشرطة، حيث نذهب لتجديد إقامتنا، وحيث أبقى أنا خارج المبنى أنتظر ساعات حتى تناديني لأوقِّع أمام المسؤول. فهناك، في مركز الشرطة، يلتقي الغرباء ويتعرّف مواطنو البلد الواحد على بعضهم بعضًا، ويتبادلون الأحاديث والعناوين. وفي ليماسول، كثيرون هم الفارّون مثلنا من بلدهم القريب. أكان بسبب الحروب أو لأسباب أخرى. كثيرون. لكن، أنا، لا أريد رؤيتهم، لا من بعيد ولا من قريب. لذا، أبقى بعيدًا في مركز الشرطة، منتحيًا ركنًا لا يقربه أحد، أو قاعدًا على حجر خارج المبنى، منتظرًا حتى تناديني سامية لأوقِّع.

ليس بسبب خوفي من أيٍّ منهم. لا علاقة للخوف. الظلّ الذي يقفز فجأة من ورائي ليصفعني على قفاي ليس بالضرورة لبنانيًّا. ذلك الظلّ العملاق الشرس المجنون الفظيع القوّة، الذي يظهر في ثانية ويضرب بقوّة وبلا سبب، ويختفي.

مذ كنت صغيرًا وأنا أخاف من المجانين. لا من الظلمة ولا من الأشباح ولا من صور الموتى، ولا من أيّ شيء يخاف منه الأطفال والأولاد عادة. يضربني رعب لا يوصف حين أرى مجنونًا شاردًا هاشلاً هائمًا في الشوارع... وأشعر أنّه سيهجم عليّ، أنا دون غيري، مجرّد أن يراني. إنّه يبحث عنّي. بعينيه الحمراوين الفالتتين في محجريهما، واللتين ستتعرّفان عليّ حين سيستقرّ رأسه ثانية واحدة

باتِّجاهي. أغرز أصابعي في ذراع أيُّوب ف...

أهوِّن على نفسي حين أتذكَّر أنّها نتيجة الإدمان. الفطام عن المخدّرات. ربّما هو السبب في ما أقع أحيانًا فيه. تبعات الفطام التي يبدو أنّها تستمرّ شهورًا. كم مضى من الوقت وأنا لم أشمّ الحشيش، والكحول فوق كلّ ذلك! أنسى، لأنّي لم أكن أعترف أنِّي مدمن مخدّرات. لا أعترف ولا أعرف. لا يعرف المدمن أنّه كذلك إلّا حين تنقصه البضاعة. وأنا كنت غارقًا فيها. غارقًا في كيلواتها وأطنانها...

وليلة الباخرة؟ ليلة الباخرة الرهيبة التي لا أجرؤ على تذكّرها، ولا أعرف حتى ما حصل لي فيها، أليست ليلة الفطام الأولى التي يقولون إنَّها الأصعب؟

أتابع مشاهدة التلفزيون. أيّة نعمة ألّا أفهم اليونانيّة، أيّة نعمة! أنظر إلى ساعتي، إنّها تقارب الواحدة. تبًّا! بعد قليل سينقطع البثّ.

كانت الساعة تقارب الواحدة. التلفزيون القبرصي انقطع عن البثّ. قمت إلى غرفة النوم، وأنا أتردّد بين السرير وكنبة الصالون.

دخلت سامية بعد أن طرقت الباب. قلت لها لماذا تطرقين الباب، هل أضعت المفتاح. قالت إحزر من معي. لن تصدِّق المفاجأة التي أحضرتها لك. لن تصدِّق. إحزر من معي في الخارج!

بقيت واقفًا كالمسطول، أنظر في وجه سامية ولا أفهم. إذا عرفتَ مَنْ وراء الباب أعطيك مئة دولار، تكرِّر سامية بخماس غريب، وهي تعرف أنِّي أكره كثيرًا أن يدخل أحد هذا البيت. وأكره المفاجآت، خاصّة الموصوفة بالسارّة، وأكره الأحاجي. وقبل أن ينقلب مزاجي من الحياد إلى الغضب، فتحت سامية الباب وشدّت رجلاً من ذراعه إلى الداخل. أنظرْ. أنظرْ من معي.

لاحظتْ سامية بسرعة أنّي لم أتعرَّف على الرجل.

هبّك! هبّك هنا في قبرص، قالت سامية. ثم تابعت جرّه من ذراعه إلى الداخل.

صار هبّك، حين لا يجدني في البيت، يلحق بي إلى حديقة الأطفال، حتى صرت أفكّر بالإختباء منه في مكان آخر.

يريد هبّك، وبإصرار عجيب، أن يُعيدني إلى الشغل في شركة قريبه التي هربتُ منها. لا بدّ أنّ وراءه سامية. سامية مدفوعة بحسّها بالواجب وليس من أجل المعاش الشهري... إذ ليس طبيعيًّا أن يبقى الرجل هكذا في البيت لا يفعل شيئًا... من أجل صحّتي النفسيّة، برأي سامية.

حين اكتشفتْ سامية وجوده في قبرص وحملته إليّ كهديّة جميلة، ثم عرفتْ وتأكّدتْ أنّي لا أريد هذه الهديّة، وأنّ عليها فصاعدًا أن تفصلني تمامًا ونهائيًّا عن نشاطاتها الاجتماعيّة، راحت تقول لي: تتسلّى معه من وقت لآخر. حتى لا تبقى وحيدًا هكذا. هذا صاحب قديم، من هؤلاء الذين كنت تحبّهم.

بقيتُ لأسابيع لا أجد ما أقوله لهبّك سوى: تغيّرتَ كثيرًا. أو: لم تكن هكذا قليل الشعر. أو: لقد سمنت بعض الشيء أليس كذلك، أو بضع كلمات عن الطقس لأقطع أمواج الكلام في ثرثرته التي لا تتوقّف.. هذا حين كنت أفتح له الباب ضَجِرًا، ومنزعجًا من رنين الجرس الطويل الذي يُتبعه هبّك بـ: هل كنت نائمًا، لماذا تتأخّر هكذا بفتح الباب؟

ولم يكن هبّك يحترمني أو يحجم عن الزعل منّي بسبب تراتبنا القديم في الفرقة، بل لأنّه، كما قال مرارًا، كان يسمع عنّي أخبارًا تدعو للافتخار والفرح. أخبارًا عن نجاحي في التجارة والمقاولات، وعن ذكائي في اللعب بالبورصة العالميّة، وانتقالي بجدارة إلى دوائر القرار العالية دون أن أظهر، من خلف الكواليس.

ويتكلّم هبّك، من وقت لآخر، عن قسوة الحياة على من لديه أخلاق عالية في هذا العالم الوسخ، ملمّحًا إلى أنّه يعرف، أو حتى هو مقتنع، دون استيضاحي، بأنّ سبب كبوتي الحاليّة هو خيانة من قبل من جعلت منه صاحبي وصديقي وأمين سرّي وصندوقي، فخانني وسرقني وهرب، فأصابني ما أصابني من الخيبة والزهد بالحياة والناس والمال... تلك هي لا بدّ رواية سامية عن الروديو. وربّما هي الرواية التي روتها لنفسها أيضًا.

وراح هبّك يكلّمني على قريبه، صاحب الشركة، الذي يشبهني. من لا شيء، صار ثريًّا كبيرًا ويملك العديد من الشركات. من لا شيء، بدأ وكان شيوعيًّا، لا، بعثيًّا عراقيًّا، وذكيًّا، فتح خطًّا على أوروبا الشرقيّة، استيراد وتصدير. وقال ربّك الكريم خذْ. أنعم عليه، وصار هو نفسه لا يعرف كم يملك من المال. من لا شيء. خمسمائة

دولار ثمن سيّارته القديمة كانت رأسماله... وفتح هذه الشركة هنا في الوقت الملائم. قبرص، ما هي قبرص، هذه القرية التافهة ستقول لي. قبرص هي مكتب. مكتب وأوتيلات. كلّ مئة متر فيها خمسون شركة. أنت تضجر لأنّك لا تعرف قبرص. إن بقيت هنا هكذا لن ترى شيئًا. شركات أوف شور ومال مثل التراب. وبلد فقيرٍ يغضّ النظر والكلّ عايش. خاصّة العرب. أخرج قليلاً إلى صالونات الفنادق في الليل...

... وحتى أقطع دفق ثرثرته، كنت أذكّر هبّك بأنّي لا أنفع لشيء في شركة قريبه من دون رأسمال، ولأنّي لا أحسن مهنة ولا أتقن وظيفة. أكرّر عليه ذلك بالجدّيّة المتوجّبة، حتى يتوقّف عن وصف ما أقول بالتواضع الذي لا لزوم له.

خبرتك أهمّ من مئة شهادة، يقول هبّك. قريبي هو أيضًا لا يحبّ سوى من هم من صنفه، ويحتقر أصحاب الشهادات. أنا بدأت معه فرّاش، أوفّيس بوي، أنا الآن يده اليمنى في كلّ شيء.

ـ أنت قريبه يا هبّك، هو مجبر بك. ولأنّه قريبك يأتمنك...

ـ يا وديع.. يبدو الحديث بيننا وكأنّي أريد التوسُّط لك لدى قريبي لتجد عملاً. الحقيقة هي عكس ذلك. أنا أريد أن أخدم قريبي. أن أردّ له جميله عليّ. أريده أن يستفيد من ذكائك وخبرتك وقوّتك في البزنس.

هكذا، كانت ثرثرة هبّك تمرينًا يوميًّا. حملني كأنْ بالقوّة إلى شركة قريبه الذي أعطى أوامره بالهاتف لتشغيلي. بوضعي في أيّ مكان حتى حضوره إلى قبرص. مدقّق حسابات. ويقول هبّك خبير حسابات.

لا تفعل شيئًا، تسلّى في هذا المكتب الواسع حتى حضور الرجل. تسلّى وأجرك محتسب وأنا هنا، نقضي الوقت معًا. نتسلّى. وكان هبّك يُداري حَرَجًا خفيفًا، لأنّ ما يقدِّمه لي لا يليق بمقامي، ولأنّ غياب الرجل قريبه طال، واضطرّ هبّك للسفر مرارًا، لكنّه كان يعود بعد أيّام قليلة ليسارع إلى مكتبي ويتأكَّد أنّي ما زلت هناك. وليرى أيضًا ما تكشّف لي خلال غيابه عن موقعه وأهمِّيّته في الشركة... تلك الأهمِّيَّة التي يندم هبّك قليلاً، لأنّه بالغ في تصويرها لي، وبالتالي في توريطي بقبول الشغل كشخص من طرفه، يقوى بقوّته ويضعف بـ...

لن يعرفوا قيمتك هنا قبل أن تلتقي بالرجل، يقول هبِّك حين يرى ضِيقي، بل واختناقي أحيانًا في تلك الغرفة الرماديّة التي أعمل فيها أشياء قليلة، مدقِّقًا بعد من دقّق. أشياء لا تشغل ساعة واحدة من ساعات اليوم الطويل. لكنِّني لا أضجر. لم يكن إحساسي بالاختناق بسبب الضجر.. أكان في البيت أو في حديقة الأطفال أو في المكتب. ثم إنّ الرجل الوحيد الذي كنت مضطرًّا للتعاطي معه كان إنكليزيًّا قليل الكلام. يدخل حاملاً ملفًّا أصفر، يقول كلمتين دون أن ينظر مباشرة في عينيّ، ثم يخرج.

لكنْ، كان لهذه الشركة مدير... مدير شرس يشبه كلب البلدوغ بشدقيه الهائلين ورأسه الكبير. استدعاني مرّتين. المرّة الأولى كلّمني بالإنكليزيّة دون أن ينظر إليّ، والثانية بالعربيّة الصريحة ليسألني عن شيء في ملفّات مرّت على مكتبي. لم أفهم شيئًا، لا في المرّة الأولى ولا في الثانية. أعماني الرعب من الرجل وأصمّ آذاني.

جلست بقيّة النهار في مكتبي أنظر في الفراغ. أفكِّر في ذلك الرعب الذي أعادني الرجل إلى بطنه، دون سبب واضح. كنت أعتقد

أنّي بدأت أخرج شيئًا فشيئًا من تلك اللجّة السوداء السحيقة. أنّي بدأت أنسى عواقب الفطام عن المخدّرات. أنّي ربّما سأعود رجلاً طبيعيًّا على نحو ما. ولهذا أصلاً قبلت أن أذهب يوميًّا إلى الشغل.

رحت أتساءل إن كان صرخ بي في المرّة الثانية. لا اتذكّر كلمة واحدة ممّا قاله لي. ولا كلمة واحدة بقيت في رأسي، أو أنا نجحت في استرجاعها. هل بهدلني. هل شتمني صراحة أو أنّه أنّبني تأنيبًا عنيفًا؟ وربّما فعل لمعرفة ردّة فعلي، وإذن قوّة موقعي في هذه الشركة، مدى قربي من صاحب السلطة فيها!

في الأيّام التي تلت، ذهبت إلى الشغل. ليس لانتظار عودة هبّك، إذ لا يجوز أن أترك في غيابه هكذا دون تفسير أو كلمة. بل كنت أصحو صباحًا وأتوجّه إلى المكتب، وفي رأسي همّ واحد: هل سأخاف اليوم أيضًا؟ هل سيرعبني اليوم أيضًا هذا الرجل؟... هل سأفهم اليوم لماذا يرعبني؟... هل سأتذكّر ما قاله لي في المرَّتين اللتين استدعاني فيهما؟

ثم هربت. لم أنتظر نهاية النهار. شعرت باختناق حقيقيّ، بدمي يتسمّم. رنّ الهاتف في مكتبي، فرحت أرتجف. قلت هذا هو. بثوان، صرت في الشارع. بدقائق، حديقة الأطفال الصغيرة.

صرت ملزمًا الآن، تجاه نفسي، أن أستعمل كلمة نوبات حين أفكّر بحُفَر الرعب التي أقع فيها. لأنّها نوبات تأتي هكذا فجأةً قويّة جامحة مثل نوبات الصرع. ولعلّ نوبات الصرع أكثر رأفة، إذ يغيب صاحبها عن الوعي، فلا يعرف بعد عبورها شيئًا عنها، أو عن حاله وهو فيها.

لكنّي أنا أعرف.. ولذا، أخشى مجيئها قبل أن تجيء وأتوقّعه، نوبات الرعب تلك، فلا أرتاح فعلاً بين نوبة وأخرى كما يحصل لمريض الصرع... هكذا، أظلّ إمّا خائفًا متوجّسًا، وإمّا مرعوبًا. يا الله!

ومع هذا، مع هذا كلّه، ينزل فيّ أحيانًا نعاس كنت في البداية أفرح له كعزاء جميل، وكوعدٍ بالسكينة والراحة والنوم.

إنّه نعاس حقيقيّ، كنت أقول لنفسي، وليس نوعًا من ذلك التعب الكبير الذي يهدّ الجسم إثر نوبات الرعب... أو الصرع. لكنّه لم يكن كذلك. كان نعاسًا يلفُّني كشبكة هائلة من المعدن الثقيل على كامل جسمي، يشلّني تمامًا تحت وزنه، ويعيق أعضائي عن الحركة دون أن يقودني إلى النوم المشتهى. وكلّما كان هذا النعاس قويًّا كان النوم بعيدًا، مستحيلاً.

أكون قاعدًا على الكنبة في الصالون، أو على البلكون، أو في حديقة الأطفال، لا فرق. لا ينفع أن أتمدّد، أن أغمض عينيّ، أن أفكّر بنعاسي أو نومي طفلاً. كلّما أحسست أنّ النوم اقترب منّي لطمتني اليقظة، كأنْ بمياه باردة، من قمّة رأسي حتى أخمص قدميّ.

إنّه نعاس مقطوع عن أيّة لذّة. يشبه تلك الحالة التي تصيب المرء بين غفوتين. حين يستيقظ آتيًا من النوم ثم ذاهبًا إليه. لكنّي، أنا، أبقى في الوسط دون الحالتين، بائسًا تمامًا وضائعًا وعلى وشك البكاء، دون القدرة على البكاء.

ودون القدرة على الرؤية أيضًا. ولو فتحت عينيّ على اتّساعهما، لن أرى شيئًا ولن أعرف حتى أين أنا بالضبط. ولن أسمع شيئًا كذلك،

ولو نادتني سامية بأعلى صوتها. وإن سمعت الصدى البعيد، الرخو والمتجرجر لصوتها، لن أستطيع استخراج صوتي من بلعومي.

ليس خدرًا ولا شللاً. إنّه نعاس، نعاس، وليس له اسم آخر، لكنّه يشبه الموت. لا أدري إن كان يشبه الموت، فأنا لا أعرف كيف يكون الموت. لكنّه يشبه، على ما أظنّ، بداية الموت. بدءُ الانزلاق فيه، قبل نهاية الحياة بقليل.

أو يشبه ربّما اللحظة التي كانت تنزل فيها ضحيّتي على ركبتيها قبل أن أُطلق الرصاصة في رأسها، بجزء من الثانية، قبل الحريق الدائري بجزء من الثانية، في استيهاماتي القديمة، حين كنت سفّاحًا كبيرًا أقتّل الناس بالعشرات والمئات، والموسيقى الربّانيّة تتصاعد حتى تكاد تنقلب الأرقام على لوحة النقاط المضيئة.

حتى حين يجمِّد أطرافي البرد أو تدلق السماء ماءها عليّ، إذ أكون على البلكون أو في حديقة الأطفال، أبقى في مكاني وقتًا معتبَرًا قبل أن أتمكّن من الوقوف وجرّ نفسي.

أتساءل أحيانًا بشكل جدّيٍّ وملحٍّ عن الإنسان الذي هو أنا. بين استيهامات القاتل وأوهامه ووقائع حياته الحقيقيّة، وبين ما صرتُ إليه الآن في هذه الثغرة، الهوّة، التي في داخلي، في وسط جسمي، ولا أستطيع أو أعرف تسميةً لها أو تعريفًا.

كم أصبحت مختلفًا! تغيّرتُ كثيرًا، لكنّي أذكر جيِّدًا ذلك الذي كنته. لا أكرهه ولا أحنّ إليه.

أذكر ذلك الذي كنته، حين أفكّر فيه أجدني لا أعرفه تمامًا. أراني أخلط الذكريات بالصور الواهمة. أخلط بين أحلامه وكوابيسه،

بين طفولته وشبابه الأوّل، بين موت أمّه وحياة أبيه... بين ألفة بيت أهله وغربة لها حجم السديم اللّامتناهي.

ربّما الناس جميعهم مثلي. وربّما ينزل فيهم نعاس يشبه ذلك النعاس الذي ينزل فيّ. من أين لي أن أعرف بما أنّهم لا يقولون، لا يروون شيئًا عن أنفسهم. مثلي.

سيِّدي ومعلِّمي وحبيبي كان مدير الشركة الجديدة. لكنِّي آنذاك لم أكن أعرفه. ولم أكن أريد العودة إلى الشغل. لم أكن أقوى على المرور في شارع الشركة، أو النظر إلى مبناها.

لكن، حين قال لي هبّك، الذي لم يتوقّف عن التردُّد عليّ في البيت أو في حديقة الأطفال، حين قال إنّ الرجل المدير مات، بعد أن عانى أسبوعًا كاملاً في المستشفى من جلطة دماغيّة نزلت عليه كالصاعقة، وهو يثرثر ويضحك عاليًا مع أصحابه على مائدة عشاء فاخر، شعرتُ بأمان عظيم حلّ في قلبي. وراح هبّك يروي، عن سائق وزير كان حاضرًا ذلك العشاء، أنّ لقمة القريدس العملاق علقتْ في بلعوم الرجل، فاعتقد الحاضرون أنّها شراهته، ثم مدّ أحدهم أصابعه إلى حلقه وكشطه كشطًا من بقايا الأكل، إلّا أنّ الرجل لم يستردّ أنفاسه، بل راح يشخر شخيرًا قويًّا ويتقيّأ على دفعات كمِّيَّات هائلة من

الأكل المهروس.. حتى حضر مدير الفندق، أو مدير المطعم، واتّصل بالإسعاف وإلى آخره...

وأنا أتنفّس بعمق، كنت أتخيّل تفاصيل ما يرويه هبّك محاولاً استرجاع ملامح وجه الرجل ولا أنجح في ذلك. لا وجهه وراء المكتب ولا وجهه وهو يختنق. ثم قلت في نفسي إنّه أمر طبيعي، إذ، ورغم الرعب الذي ضربني منه، فأنا لم أعرفه لمدّة طويلة ولم أر منظره ماثلاً أمامي سوى مرّتين اثنتين. ثم رحت أفكّر، بعد أن تأكّدت من موته، بأنّي ربّما وضعت فيه أسباب الرعب الذي أصابني من الحياة كلّها، متمنّيًا أن يكون ذهب عنّي مع موته.

وهبّك، الذي انتبهت فجأة إلى أنّي نسيت اسمه الحقيقي، كان مستمرًّا في الكلام. ولأنّه لم يكن يعرف سبب تركي الشغل، مخمِّنًا من تلقاء نفسه أنّه لم يجر احترامي كما يليق بي من قبل الإدارة، راح هبّك يقول ويكرِّر إنّه ينبغي عليّ العودة الآن. تعرَّفتُ عليه، وسيتسلّم الشركة بعد يومين. مودرن ومتواضع وشغِّيل. ومكانك في الشركة ما زال محفوظًا طبعًا. عليك أن تجرِّب، يقول هبّك، فالرجل قريبي سيمرّ على قبرص بعد أيّام قليلة، أقلّ من أسبوع، ولا أريده أن يعتقد أنّك تركت الشركة. إخدمني هذه الخدمة. سوف يسألني عنك. ماذا أقول له بعد كلّ ما وعدته به؟

لم أعد إلى الشغل بسبب ما كان يلحّ به هبّك عليّ. عدت في البداية لأتفحّص خوفي بعد موت الرجل وتركه هذا العالم. لأنظر إلى باب مكتبه، وأرى ما يحصل لي. عدت، وفي رأسي أن أبقى بعد أن يذهب الموظّفون وتأتي عاملات التنظيف. وفي رأسي أن أدخل المكتب الكبير الفارغ. وأن أمكث وقتًا هناك محاولاً على الأقلّ تذكّر

ما جرى لي فيه، وإن كان سيحضرني ظلّ الرجل الكريه، أو سأشمّ رائحة غليونه.

لهذا، ذهبت إلى الشركة. لم أخرج من مكتبي الذي وضعني فيه هبّك بثقة كبيرة وبترحيب ظاهر. عند المساء، قلت له أن يسبقني لشراء حاجيّات للبيت، إذ سنتعشّى سويّة. انتظرت خروج آخر الموظّفين. وحين سمعت جلبة عاملات التنظيف القبرصيّات، توجّهت وركبتاي تصطكّان إلى ذلك المكتب. وفتحت الباب.

ورشة كاملة. أوراق الجدران البنِّيَّة المذهَّبة ممزّقة في الأرض. النوافذ واسعة مفتوحة بلا ستائر. البلاط مبقّع ببقايا الغراء السميك موزّعة عليه لفائف الموكيت المسلوخة. ورغم أنّ الشمس كانت تميل إلى المغيب، بدت الغرفة مضاءة، واسعة، محايدة بشكل غريب. جديدة، مختلفة، ولا أثر لبقايا الرجل فيها.. بتاتًا.

حين نتأخّر في الشغل، أقول لزوجتي، يبقى معنا. وأحيانًا يدعو من يريد العودة من الموظّفين إلى بيته وعائلته أن يفعل، لكنّنا جميعًا نرفض دعوته. ليس بسبب الحرج من أنّه هو، مدير الشركة، باق، وإذن عيب علينا أن نتركه ونعود إلى بيوتنا، بل بسبب محبّتنا الحقيقيّة له وتقديرنا العالي لإخلاصه في عمله. فذلك الإخلاص يطولنا نحن أيضًا، وليس فقط مصالح الشركة، إذ إنّ عيشنا مرتبط بعيش مصدر رزقنا.

هذا هو رأيي، أقول لسامية، ربّما كنت مخطئًا بالنسبة للآخرين. لكنَّ رجلاً مثله، له حضوره اللطيف والمتواضع، يشيع المتعة بين الموظّفين. يعملون فرحين، مستمتعين. فهو لا يصدر الأوامر بل غالبًا ما يطلب النصح. لا يتردّد في الإشادة بنا وبخبراتنا. يقول إنَّه من دوننا لا يستطيع أن ينجح في شيء، ولأنّنا أكبر منه سنًّا، فهو يتعلَّم منّا أشياء كثيرة، بل الأشياء المهمّة. ويقول إنّنا مثل عائلة واحدة، لأنّنا نقضي معظم الأوقات معًا. نبقى معًا أكثر من بقائنا مع عائلاتنا وأهلنا. ويقول

إنّنا هنا، في بلاد الغربة، بأمسّ الحاجة لأن نكون هكذا متقاربين... كالأهل حقيقةً. خاصَّةً وأنّ بلادنا تحترق. تحترق بلادنا بفعل الفرقة بين الأهل، والتحارب بين الطوائف والميليشيات المجرمة.

أغصّ. أكاد أبكي، وأنا أكرِّر على مسامع سامية، الجالسة على ركبتيّ تصغي بكلّ انتباه ما يقول لنا معلِّمي الشابّ الصغير. بلادنا تحترق بالفعل يا سامية، أقول. وهي تعرف أنّي أكره الطوائف والميليشيات المتقاتلة. كلّ عمري أكرهها.

.. وحين نتأخّر في المكتب ويطلب لنا عشاءً جاهزًا، يجلس إلى جانبنا ليأكل معنا. يقول، وهو يمازحنا، إنّ علينا ألّا ندعه يأكل كثيرًا، لأنّه شره ولأنّه يسمن بسرعة. قطع اللحم المشوي الكبيرة يقذفها باتّجاه من يبدو منّا هزيلاً، أو من كان «صاحب عائلة وواجبات»، يقول ممازحًا.

أتراه يعرف يا سامية كم أنِّي أحبّه؟! من غير السهل أن أصارحه بذلك. الرجال ليسوا كالنساء. إنّهم لا يتكلّمون، لا يفصحون.

لا بدّ أنّه يعرف، تقول سامية وهي تقبِّلني، قلب الإنسان دليله... لكنِّي صرت أغار منه يا وديع... مع أنَّه أعاد إلينا «ثروة العائلة»، تقول سامية ضاحكةً، وهي تربّت على ذَكَري بتؤدة، وتروح تمسحه من فوق الثياب وهي ناظرةً بدلال وغنج في عينيّ.

لكنّها لن تثيرني الآن، وهي تعرف ذلك، إذ ما زلت راغبًا في المزيد من السمر، وفي الكلام عليه...

وهي، سامية، حين تعرّفت إليه في سهرة عائليّة، جمعت الزوجات والأولاد، وحتى الأمّهات اللواتي التحقن بعوائل أولادهنّ هربًا من الحرب، صارت مثلي. وحين أعود إلى البيت ولا أتكلّم عنه، تروح هي

تسألني عن أخباره. فأبدأ حديثي بسلاماته.. تسألني إن كان يرسل التحيّة أيضًا إلى زوجات الموظّفين الآخرين، فأؤكّد لها أنْ لا.

وكانت فرحةُ سامية كبيرة حين تلفنتُ لها ذات مساء طالبًا منها ألّا تخرج، وأن تهتمّ بإعداد العشاء، لأنّ المعلِّم سيأتي معي ليتعشّى عندنا. قالت سامية أنت تمزح. أكّدتُ لها الخبر عدّة مرّات، وأقسمت لها برحمة أمِّي، حتى صدّقتني.

كانت ليلة من العمر... يا إلٰهي! لم أصدِّق أنّه في بيتي. قالت له سامية إنّه كان ينبغي أن يعلن رغبته في العشاء عندنا من الصبح، حتى تعدّ له مائدة تليق به، وتكون على قدر فرحنا بتشريفه. رحت أقول لسامية إنّه ليس كذلك، لا يحبّ التشريفات ولا يريد أن يأكل سوى من أكل البيت. صحيح قال، ذلك أنّي اشتقت للأكل البيتي، واشتقت فيما يبدو لأمِّي. قالها بكثير من الخجل والاختصار. وأنا أعرف أنّ أمّه تعيش في كندا مع إحدى أخواته... رحت أنهر سامية بلطف حتى تكفّ عن ترحيبها، وحتى يشعر أنّه في بيته.

صفّت سامية الصحون والأطباق الكبيرة على طاولة السفرة، لكنّه لم يمدّ يده إلى الطعام. قال لا، لا يجوز قبل أن تحضر ستّ البيت وتجلس معنا. بقيت أشياء قليلة على النار، كانت سامية تقول من المطبخ... إبدآ الأكل، لكنّه ظلّ يرفض.

قال لي إنّه هكذا بالفعل، لا يصطنع التواضع. لست ابن عائلة، كما يقولون عن الأثرياء، قال. ضحّى أبي كثيرًا وسهر الليالي حتى دفع أقساط مدرستي ثم الجامعة. كان معلِّمًا في مدرسة ثانويّة خاصّة، لكنّ معاشه لم يكن يكفي. كان يعطي دروسًا خصوصيّة باستمرار لأولاد الذوات والأغنياء، ويعود إلى البيت في ساعة متأخِّرة من الليل. لم نكن نراه. صحيح أنّه كان قاسيًا جدًّا، من الجيل القديم، لكنّه كان رجل

أخلاق. وحين مرض بالسرطان في آخر حياته، رفض عرض أحد أقربائنا البعيدين، الذي كان ثريًّا جدًّا، بتسفيره للعلاج في الخارج. قال للرجل هناك من يحتاج العلاج والسفر أكثر منِّي. أنا رجل مسنٌّ الآن وعشت حياتي. هناك شباب مرضى لا يملكون ثمن الدواء. ثم مات أبي في فراشه وأنا حزنت عليه كثيرًا، ليس فقط بسبب مرضه وموته، بل لتفويته فرصة العلاج على نفسه وعلينا. ولأنّ رجالاً مثله مضى زمنهم.

لم أعرف بِما أعلِّق على كلامه الحميم. هذا الكلام الذي يفصح به ربَّما للمرّة الأولى في حياته. ويفصح به لي. أنا. لارتباكي رحت أسكب في صحنه من كلّ الأصناف، مردِّدًا بسخافة: من خلّف ما مات... الله يرحمه... وأشياء من هذا القبيل، مستعجلاً سامية.

يسكب المزيد من المرق على الرزّ، ويكيل المديح لسامية على طبخها الطيِّب: هكذا سآتي مع وديع كلّ مساء. الأبلما صعب طبخها، إذ تغدو كثيرة الدهن حين تُقلى الكوسى. هناك من يشوون الكوسى في الفرن، لكنّ الطعم يختلف. وهناك من يضيفون صلصة البيشاميل إلى صلصة البندورة، لكنّها إذ ذاك لا تعود أبلما. صلصة بيشاميل وجبن.. إذ ذاك لا تعود أبلما. إذ ذاك سمِّها غراتَّان... السرّ في قلْي الكوسى، إذ ينبغي، على ما أعتقد، أن يكون السمن حاميًا جدًّا وألّا تُترك الكوسى فيه حتى تنضج أو تمتصّ الدهن... وبما أنّها ستنضج في الفرن. لست طبّاخًا عارفًا، لكنِّي، حين كنت أدرس في أميركا، كنت أُعدّ وجباتي بنفسي للتوفير.. ثم...

ـ الفجل طيّب مع الأبلما، أقول وأنا أقرِّب منه صحن الفجل. يضع فجلة على طرف صحنه.

ـ الفجل طيِّب مع كلّ شيء. محسوبك يأكل الفجل مع أيّ شيء، يقول ضاحكًا وهو يضع فجلة في صحن سامية.

لماذا أنا، أسأل سامية، لماذا اختارني أنا؟ إنّه يضع فيّ ثقة لا أستأهلها. يأتمنني على أسرار في الحسابات وهو يعرف تمامًا أنّي لست صاحب اختصاص أو خبرة. تضحك سامية ساخرة منّي: التفسير أنّه مغرم بك، إنّه شاذٌّ جنسيًّا، ويريدك ويخطّط لذلك. وذات مساء سيتمكّن من ذلك، يقفز عليك ويغتصبك.

أغضب، وأقول لسامية حسنًا، حلِّي عنّي، حلِّي عن ربِّي، انتهى الموضوع.

في موقعك، ما يهمّ الرجل هو الأخلاق وليست الشهادات العالية أو الخبرة، تقول سامية. الحسابات يقوم بها المحاسب. ما يريده منك هو الأمانة، شخص لا يتلاعب ولا يسرق. وهو يعرف كم أنت تحبّه، وإذن لا يمكن أن تغشّه... إنّه لا يثق بالآخرين كما يثق بك. لهذا يغارون منك. لأيّ سبب إذن لم يعد هبّك صاحبك كما في السابق،

وهو يعرف فضله عليك؟ هبّك هو من أدخلك الشركة وعرّفك على صاحبها وعلى المعلِّم. هبّك صاحبك من زمان، منذ كنتما ولدين، لماذا لم نعد نراه إلّا نادرًا؟ سلوى زوجة هبّك راحت تهنّئني على محبّة المعلِّم لنا، وكيف أنّنا قضينا عطلة نهاية الأسبوع في الجبل معه في «ترودوس». وسألتني عن مشاريعنا، وإن كان صحيحًا أنّنا سننتقل إلى ڤيلّا في شارع البحر باعتبار أنّ معاشك ارتفع، وأنّك تقبض ما يوازي الراتب عمولات ومكافآت. وأنا لم أقل لا. تركت الستّ سلوى في شكوكها، لأنّ ذلك يعني أنّك قويّ عند المعلِّم.

هبّك خادم، قلت لسامية، أنا لست خادمًا لأحد. هبّك وزوجته والآخرون لا يعرفون معنى الصداقة. حين يقولون إنّه يدفع لي مكافآت وعمولات، فهذا يعني أنّي فاسد بما أنّني مدقّق الحسابات... وهذا يعني، وهنا الفظاعة، أنّه هو، المعلِّم، رجل بلا أخلاق بما أنّه يرشو الناس ويفسدهم. أنّه حرامي.

لا يهمّك من كلّ هذا، قالت سامية...

كيف لا يهمّني... إنّهم يكرهونه يا سامية!

نزلت أتمشّى. مررت بحديقة الأطفال الصغيرة، لكنّها لم تكن فارغة، فقد رقّ الطقس لاقتراب الربيع، وصارت الأمّهات يحملن أولادهنّ ليسرحوا هناك. كنت حانقًا وأتساءل إن كان هناك ما يستدعي كلّ هذا الحنق. رحت أفكّر بأنّي لم أكن في حياتي موظّفًا تحت إمرة أحد. لهذا، ربّما، لا أفهم عقليّة الموظّفين. صحيح أنّه زاد راتبي، لكن ما أقدِّمه لهذه الشركة يستحقّ أكثر من ذلك. فبعد أشهر قليلة،

صاروا يخرجون عند انتهاء دوامهم، ولا يبقون مثلي معه أحيانًا حتى منتصف الليل. لو فكّرت بالساعات الإضافيّة، لاستحققت أكثر من هذه الزيادة. ما المشكلة؟

لأوّل مرّة منذ تركت البلاد، أتذكّر أبي. كيف كنت أغضب من بقائه في بيت معلّمه أحيانًا كثيرة حتى ساعات الفجر الأولى، وأتذكّر كم كنت أكرهه حين كان يدافع عن معلّمه باستمرار. كيف كان يحبّ معلّمه. كم كان يحبّ معلّمه!

يدخل غرفتي ويوقظني من النوم، قمْ، قم يا وديع. لا بأس لو خسرتَ ساعة نوم، فهذه الحلوى الطيّبة تؤكل ساخنة. قمْ أنظر ما أرسل المعلّم لك معي. قمْ. قال هذه تأخذها خصّيصًا لوديع..

يقرّب أبي المشّاية من قدميّ ويساعدني في الوقوف. هكذا تأخذ وقتك، يقول، تتجهّز على مهل للمدرسة. يمسكني من يدي، ويسند ظهري بيده الأخرى خوف أن أتهاوى من النعاس. يُجلسني على الكرسيّ في غرفة السفرة، ثم يفتح أمامي لفافة الورق الأبيض. ما زالت ساخنة، يقول وهو يدلق القطر السكّري من علبة بلاستيكيّة صغيرة. الشعيبيّة لا تؤكل باردة ولا يمكن تسخينها، تفقد طعمها. كلْ. قال المعلّم هذه الشعيبيّة تأخذها خصّيصًا لوديع، كان أبي يردّد بصوت خفيض حتى لا يوقظ أمّي، مقرّبًا رأسه من رأسي وهو يقطع الشعيبيّة بالملعقة الصغيرة، وينثر مربّى زهر الليمون على كلّ القطع مباعدًا ما بين الوريقات الصغيرة الحمراء لتفتوش قطع الشعيريّة الذهبيّة المحمّصة بالتساوي.

صحّتين يا وديع. خصّيصًا لوديع.

لماذا أفكّر الآن بأبي؟ لست خادمًا مثله. ولا معلّمي كمعلّمه. فقط هو هذا الليل الذي اقتربت ساعاته من بدايات الفجر. فقط هو هذا الأسود الأخير الذي كنت أراه من نافذة بيتنا، وأنا أقرش الشعيريّة الذهبيّة المحمّصة والقشدة الساخنة تذوب بقطرها في فمي. وفي أنفي تصعد عطور مربّى زهر الليمون لتسحبني من النعاس الثقيل.

تشير الفتاة الآسيويّة الواقفة أمام باب البار بيدها أنْ تفضّل. تبتسم وترفّ بجفنيها: يو أوفر مي درينغ؟ فألحق بها إلى داخل كرة الضوء الأحمر.

كالكلب. كالكلب أحببته.

كما يحبّ الكلب الأصيل الجميل صاحبه بدون مقابل. ونكاية بالكلاب البندوقة الوضيعة، الشاردة تنهش وتسير. ونكاية بأصحاب الكلاب الوضيعة، يلقون الفتات، يركلون ويمشون. ومهما قالوا، سأُعطيه الحبل المربوط إلى رقبتي يسير بي أينما يريد وأنا أهزّ ذنبي يمينًا ويسارًا دليلاً قاطعًا على سعادتي.

مرّ بكفّك على فراء رقبتي من وقت لآخر، واجعلني أمام بابك، أبوابك، وسوف ترى. سوف تدهشك القوّة التي لي. تلك التي راحت منّي، وها أنا أستردّها.

انقيادي هو له فقط. طاعتي، لين عريكتي، حبّي. ولهم أنيابي الحادّة، نباحي، توحُّشي، غريزتي وانقضاضي العنيف بشدقين كالكلّابة المعدنيّة، لأتفه الأسباب، لأيّ سبب، للمزاج. هكذا فقط تستوي الأمور.

أحمل السبّحة وأتمشّى في الرواق بين المكاتب. أُريهم بوضوح أنّي لست في مكتبي، وأنّه ليس مطلوبًا منّي أن أعمل غارقًا مثلهم وراء أكداس الأوراق وشاشات الكومبيوتر. هذا راح وانتهى. أتمشّى بسبّحتي بين المكاتب وأضحك، أقهقه بقوّة وعاليًا بلا سبب.

هكذا الآن هي قوّتي المعلنة والصريحة. أقهقه بنباحي العالي، فيرتدُّون من أبواب مكاتبهم إلى الوراء في حركة تراجع سريعة. لا يخرج إلّا من برأسه فكرة، خدمة، أو حتى نكتة ظريفة تنال بها الرضا. لا يخرج إلّا من أدخل المعادلة في رأسه وسلّم بالخوف منّي. سلّم بعزوتي وقوّتي وهيبتي.

أنا كلب المعلّم. نعم، تمامًا. لكنّي ذئبكم يا سفلة. وهذه غابي.. ولتكن الأمور واضحة نهائيًّا.

في أحلامي السابقة، كنت سفّاحًا. أدور في مدن ألعاب الڤيديو وأقتّل بالعشرات. بالمئات.

الآن، لست بحاجة للمسدّسات، ولا لشمّ المخدّرات على أنواعها لاستشعار قوّتي، لاستحضارها من خارج قلبي.

الآن، ولأنّه لم يعد لي خيار، لم يتركوا لي خيارًا، لن أقعى في الزاوية لأبوّل على ساقيّ، وأرتجف الليالي السوداء بكاملها من برودة البول في ساقيّ وفي رأسي، وتصطكّ أسناني، فلا أسمع في فراغ رأسي الصدى الفظيع لطرطقتها. سوى صرع ضرب العظم على العظم.

الآن، ليس سوى قلبي. فقط. ودفع الدم الذي ينصبّ فيه كشلّال يهدر نهارًا. الآن، تخفّفت من حمولاتي جميعها. سقط عنّي كلّ ما ومن كان عالقًا بي، بيتي، أهلي، ذكرياتي وصحبي. الآن، لا أحبّ

إلّا معلِّمي. كشطتُ عن قلبي امرأتي وديني، ولم يعد أحد يستطيع النيل منّي. صرت كالسيف العاري، من يهجم عليّ لإيذائي يرتدّ مبرّحًا بجروحه.

أتمشّى بسبّحتي بين المكاتب. يسألني هبّك إن كنت أريد قهوة. أقول له يمكن، هات فنجان بلا سكّر وسوف نرى. يعود هبّك، الذي نسيت تمامًا اسمه الحقيقي، وهو يعتبر أنّي لا أناديه به بسبب صحبتنا القديمة ولمزيد من الألفة بيننا. يعود بفنجان القهوة، فلا أمدّ يدي. أقول له ضعه هناك على حافّة الرفّ، لا رغبة لي بشرب القهوة. يهادنني هبّك، إذ يرى فيّ الزعيم الذي كنته، وطالما سمع به في البلاد. سمع بسطوته مضاعفةً آلاف المرّات، لكنّي أتركه في وهمه. ويسلّم هبّك بقوّتي أيضًا، لأنّي كلب المعلِّم كما أنّه هو، من جهته كلب المعلِّم الكبير قريبه صاحب الشركة. لكن، أنا ما علاقتي بصاحب الشركة؟ أنا غابي هنا. دائرة سطوتي هنا.. وهبّك يقع في هذه الدائرة، وعليه هو أن يرى كيف يضبط حسابات الحقول والبيادر. وإلى أيّ مدى تنفعه صلة قرابته بالمعلِّم الكبير الذي نادرًا ما يراه. والكلّ يعرف أنّه القريب الفقير الذي لا يزن في تلك الصلة إلّا في ميزان الشفقة والإحسان. ولذا، سيبقى هبّك فرّاشًا، وهو لن يستطيع إقناع أحد بأنّه هنا جاسوس المعلِّم الكبير. لأنّه كلب حراسة لا يحرس شيئًا.

لم نعد هؤلاء الأولاد نخلّع مرايا السيّارات في الليل، يا هبّك. ونتسابق للتقرّب من زعيمنا الروديو. ذلك الروديو القديم الذي اختفى في أرض الربّ الواسعة، دون أن أراه مرّة أخيرة. باي باي.

ـ نتغدّى معًا يوم الأحد، سمك طازج، أنت وسامية فقط، لن أدعو أحدًا.

ـ لا أعتقد يا هبّك. الأحد، أنا مشغول مع المعلِّم خارج المدينة. على كلّ حال... هيّئ السمك، ربّما انتهينا وعدنا قبل الليل. إذ ذاك أتعشّى عندك... إنتظرنا حتى منتصف الليل... ماكسيموم. منتصف الليل. ماكسيموم.

ـ سأنتظر، لا يهمّ، خذا كلّ الوقت. نحن لا ننام باكرًا.

سوف تقعى قرب صحنك طيلة الليل ولن تقربه. كلّما اعتصر الجوع أمعاءك، سوف تنظر إلى الباب مخافة أن ندخل، فنراك متلبّسًا وأنت تفتح شدقيك وتهمّ بالقضم.

هذه فلاة أخرى يا هبّك. يا حمار.

telegram
@yasmeenbook

سامية

اختفى وديع.

اختفى.

انشقّت الأرض وابتلعته. تبخّر في الهواء.

شهور كاملة بأيّامها ولياليها، وأنا أبحث عنه.. حتى يئست.

لا يستطيع الواحد أن ينسى إن لم يفهم. أقلّب الأمور في رأسي، أجد أحيانًا بعض الأسباب، بعض الأجوبة على أسئلتي، لكنَّها، كلّها، غير مقنعة.

كيف تركني هذا الرجل.. هكذا، واختفى؟ كلّ الحبّ الذي أحببته. كلّ ما فعلت من أجله، لأبقى معه، لأشدّ به وأرفعه كلّما وقع وكاد يغرق. يختنق ويموت.

ما الذي لم أفعله من أجل وديع؟ تركت أهلي وبلدي، وتبعت

رجلي الذي تركني في الغربة دون كلمة، ودون أيّة إشارة منه حتى الآن.

في السرّاء والضرّاء، كنت معه. كما كان ينبغي لكلّ حرّة. وكما كان يعترف لي مرارًا قائلاً إنّي أهله وعشيرته، امرأته ورفيقته.. وإنّه لولاي لكان...

أنا الموصولة به روحًا وجسدًا، لسنين طويلة، لا يخفي عنّي سرًّا. لا يستطيع حتى لو أراد. لا يستطيع، إذ ليس له غيري في هذا العالم.

ومع ذلك، لا أعرف ما أصابه حتى يختفي هكذا. يتركني هكذا.

صحيح أنّه كان مكتئبًا قبل اختفائه، لكن ليس إلى حدّ الذهاب إلى الانتحار.

ثم أين اختفت الجثّة. لم يبق رجل أمنٍ في قبرص كلّها إلّا وبحث معنا. لم نجد شيئًا. قالوا البحر، إن كان ألقى بنفسه في البحر، فلن يجد أحد جثّته.

هراء. هذا غير معقول.

صحيح أنّه عاد إلى الصمت وإلى السهر الطويل أمام التلفزيون القبرصي، وهو لا يفهم كلمة يونانيّة واحدة. وصحيح أنّه عزف عنّي ولم يعد يقربني في الفراش، لكنّنا مررنا بكلّ هذا، ولفترة أطول بكثير من تلك التي سبقت اختفاءه.

يجلس بالساعات أمام التلفزيون القبرصي حتى في النهار. لا يرى أحدًا. لا يفتح الباب لهبّك. لا يذهب إلى الشغل ولا يتكلّم عن معلّمه. معلّمه طمأنني. قال اتركيه، أعطيته عطلة ليرتاح، سيعود بعدها

إلى الشركة. صدّقت. لماذا لا أصدِّق. لم يتغيّب عن الشغل أكثر من أسبوع، أو ربّما عشرة أيّام. ثم اختفى.

أعرف أنّه كان زعلان من معلِّمه، لكنّه لم يقل لي لماذا. لم يحدِّثني بشيء. عرفت بعد ذلك من زوجة هبّك أنّ يومه الأخير في الشركة كان عاصفًا.

مرّ الرجل الكبير واستدعاهما، وديع ومعلِّمه إلى مكتبه الكبير الذي يبقى مقفلاً وفي طابق آخر. لم يسمع أحد شيئًا. لا يعرف أحد ما جرى. لكنّ رجال الشرطة القبرصيّة والمباحث ملأوا مكاتب الشركة. وعمليّات تفتيش وتدقيق الملفّات والتحقيقات مع الناس دامت أيّامًا. والسرِّيَّة كانت تقضي ألّا يقول أحد لأحد شيئًا. السرِّيَّة وخوف الناس من بعضهم بعضًا.

هبّك الذي لا أصدّقه في أيّة رواية يرويها حتى لزوجته، يقول إنّ نصف بواخر الاستيراد والتصدير التي كانت تسيِّرها الشركة كانت محمّلة سلاحًا للميليشيات، من غير علم قريبه المعلِّم الكبير. كذّاب هبّك. يكذب هذا الرجل كما يتنفّس. وامرأته كذلك. ويكذب ليس لحماية قريبه الذي سرعان ما سوّى المشكلة مع القبارصة، بل لحماية نفسه واسترداد قوّة له في الشركة كان فقدها بوجود وديع. وقريبه الثري جدًّا، والذي كان يزداد ثراءً كلّ يوم، ليس زعيمًا عاديًّا. إنّه من رجال السياسة الكبار الذين لهم موقعهم القويّ في البلد وعلاقاتهم طبعًا بالخارج، بأكبر الدول، سوّى المشكلة وسافر. هذا كذب كلّه.

وديع والمعلِّم الصغير كانا يكرهان الميليشيات. صحيح أنّ هذا ليس سببًا وجيهًا، وإلّا فإنّ الرجل الكبير كان على علم بكلّ شيء،

ومنذ البداية، وبالتنسيق معه أو حتى بإشرافه. على من يكذبون؟!

ووديع كان أخبرني، مهمومًا، أنّ من يكرهون المعلِّم الصغير يكتبون تقارير عنه للقبارصة. وديع كان مقتنعًا بذلك. قال يكتبون تقارير كاذبة ومشينة. من غيرتهم وضعفهم وكراهيّتهم وأنانيّتهم. هؤلاء الذين فتح لهم قلبه والشركة ليعتاشوا ويأكلوا خبزًا، هم وألادهم وعائلاتهم في بلاد الغربة، كانوا، كلّهم، هاربين من بلدانهم، مطرودين منفيِّين، ولا يستطيع الواحد منهم العودة إلى بلده لدفن أمّه. ممنوع. ممنوع دخوله إلى بلده أو يمسكونه على المطار. ومن المطار إلى الحبس... ومعارضون... وأحرار... ولهم آراء في السياسة. سياسة بلدانهم وسياسة العالم. خراء. كتبوا تقارير ملفّقة كي يحصلوا على إقامات طويلة الأمد ويرضى عنهم القبارصة. هؤلاء الأكثر بشاعة وإجرامًا من شرطة المخابرات في بلدانهم. وقال لي وديع إنّ السكرتيرة الفلسطينيّة ثريّا، الوحيدة التي طردوها من الشركة، قالت له باكيةً إنَّها كانت تتنصّت على التلفونات، وتكتب التقارير مجبرة وتحت تهديد كبار الموظّفين، ولأنْ ليس لها أحد طردوها... الوحيدة التي تمّ طردها من هذه الشركة.

لا تجارة سلام ولا بعر حمير ولا شيء من هذا القبيل. وإلّا لما سُوِّيت القضيّة بهذه السهولة وبهذه السرعة، والكلّ رجع إلى الشغل بشكل اعتيادي، ولم يتمّ صرف أحد انتقامًا أو أقلّها لتلقين الدرس للخونة. فقط ثريّا. قالوا إنّها فالتة تنام مع الجميع، واشتكت من أخلاقها زوجات كثيرات، قلن إنّها خطر على عائلات مهاجرة، مكافحة متحابّة متعاضدة... طيزي أشرف من هذا الكلام.

ثم قرّرتُ ألّا أبقى جامدة في مكاني مكتوفة اليدين. بعد أن طال

غياب وديع، ذهبت عنوة إلى مكتب طارق رغم تنبيهاته بألّا آتي أبدًا إلى الشركة.

قال خائفًا ومنزعجًا لماذا لم تتّصلي. لماذا لم تنتظري حتى أمرّ عليك في المساء. هكذا، قلت. مرّت أسابيع لا تأتي لرؤيتي ولا تردّ على التلفون. كنت أكلّمه بجدّ ولا أتدلّل. الآن لا تهمّني أنت. أريد أن أعرف ما جرى.

رفع سمّاعة التلفون وقال لسكرتيرته: مادلين، أنا مشغول مع إمرأة وديع. لا يدخل عليّ أحد. قولي للمحاسبة تحضّر شيكًا باسم سامية كجزء مسبق من التعويض. اعملي معروف. وشكرًا.

هكذا يتكلّم دائمًا المعلّم الصغير الشديد التهذيب واللياقة.

ـ أنا لا أعرف بتاتًا يا سامية أين هو. وحياتك!

ـ أعرف أنّك لا تعرف، قلت له. لكن ما الذي حصل حين استدعيتماه أنت والمعلّم الكبير في مكتب الأخير. أريد أن أفهم، إذ ربّما لما جرى علاقة باختفائه. ربّما.

ـ لم يجرِ شيء يطوله هو شخصيًّا. أبدًا. كان الرجل يزعق فيّ أنا. يبهدلني أنا. بسبب فوضى في الحسابات. قلت له إنّي أنا المسؤول، لا وديع، مدقّق الحسابات الذي عيّنته بنفسي، ودقّقت معه كلّ شيء بنفسي. لم يتوجّه الرجل لوديع ولا بكلمة واحدة. لم ينظر حتى باتّجاهه. ولا أدري في الحقيقة لِمَ استدعاه. لكنْ، حين خرجنا، استغربتُ ردّ فعل وديع المبالغ فيه. كان وجهه أصفر كالشمع وجسمه كلّه يرتجف. رحت أخفّف عنه وهو شارد عنّي تمامًا. حتى إنّي اصطحبته خارج الشركة، وجلسنا في المقهى المقابل للمبنى. رحت

أشرح له المسألة، لكنّ خوفه العجيب لم يذهب عنه، ولا أعتقد حتى إنّه سمع ما كنت أقول. كان ينظر إلى البعيد في اتّجاه آخر. لا يقاطع ولا يستفسر ولم يقل كلمة واحدة. تركته وعدت إلى الشركة. بقي هو في المقهى لوحده، ولم ينظر باتّجاهي وأنا أغادر المقهى. وهي كانت آخر مرّة رأيته فيها.

ـ ماذا قلت له في المقهى يا طارق؟

ـ قلت له إنّ ما سمعه ليس مهمًّا بتاتًا. فالرجل بمثابة والدي يعنّفني كما يريد. إنّه بمثابة والدي منذ رفض والدي العرض بالعلاج من السرطان في الخارج. وضعت أبي وزمنه وهبله وأخلاقيّاته البائدة في القبر، واخترت أن يكون المعلِّم الكبير هو والدي بكلّ معنى الكلمة.

وقلت لوديع إنّ ما سمعه ليس حتى تعنيفًا. إنّه مجرّد تمثيليّة، نحن الاثنين متّفقان على لعبها. صحيح أنّ ذلك الغلط في الحسابات يعني أنّي أسرقه وأنّه على علم بذلك، والتعنيف والبهدلة هما لإفهامي بألّا أتعدّى السقف، بألّا أبالغ، إذ سيكون في ذلك قلّة احترام له. «استكراد» لا يقبل به منّي. أنا الذي اختارني أن أكون كولد له. أنا المسموح لي بالسرقة، ولكن ليس بالمبالغة فيها حدّ الاستهزاء به... هذا ما قلت له. والله يا سامية.

وقلت لوديع إنّها ليست بهدلة بالمعنى الحقيقي مهما علا صراخ المعلِّم الكبير. فهو يعرف أنّي أعرف أنّ هناك من يبهدله مثلما يبهدلني. يعرف أنّي حضرت، كما حضر وديع اليوم، بهدلة شيخِهِ له. ذلك الذي التقطه كما التقطني، وجعل منه ولدًا مثل أولاده الحقيقيين،

حين رأى فيه ما أرى أنا فيه من الذكاء والفطنة. لمّه من الشارع، تقريبًا من الشارع، حين طرده شريكه الكويتي، ودرجة الحرارة في الخارج تقارب الستّين. كان يبحث عن عمل وأوراق قبل أن يعيدوه مسربلاً إلى بيروت. كان وضعه أسوأ من وضعي بكثير. وهو لم يكن يحمل مثلي شهادات. وقلت لوديع إنّها هكذا هي الحياة وليس عليه أن يخاف عليّ. إذ شيخ شيخي له شيخه أيضًا. هكذا هي الحياة، لمن قرّر ألّا يُؤكل أونطة أو بثمن بخس، وإنّي تعلّمت ذلك أيضًا، سلبًا، من والدي. والدي الذي دفنته جيّدًا بيديّ الاثنتين... ونهائيًّا. وعميقًا في التراب. دفنت المدرّس الذي فضّل السرطان والكرامة عليّ. أنا إبنه الوحيد.

في البيت، رحت أفكّر في ما قاله لي طارق. أكرّر في رأسي أنّ أحدًا لم يبهدل وديع أو يتوجّه إليه بكلمة جارحة. إنّ طارق بذل كلّ جهده، كان صادقًا معه. أكّد له على الصداقة بينهما، وهو يصارحه بأسرار كبيرة لا شيء يجبره على مصارحته بها. أكّد له على حبّه وعلى استمرار حمايته من أيّ خطر داهم.

ولا أعتقد أنّ وديع شكّ مثلاً في أن يكون طارق فعل ذلك من أجلي. غير معقول. فهو كان يحبّ معلّمه لدرجة تجعلني أفكّر أنّه، حتى لو علم بالعلاقة التي كانت بيني وبين طارق علم اليقين، لما جرحه ذلك. أعني لما أحزنه ذلك حدّ الاكتئاب أو... مثلاً حدّ الانتحار... أو حدّ تركي هكذا. وهو كان يقبّل أصابع قدميّ، يقبّلني من أخمص قدمي حتى شعر رأسي، أيّامًا قليلة قبل اختفائه.

غير معقول! غير معقول!

لكن مع مرور الوقت، صارت تنحشر في رأسي شكوك غريبة.

حين أعود إلى الفترة التي كنت أخرج فيها كلّ ليلة للشغل في بار أوتيل الكارلتون. أكان وديع يعرف، أم يجهل تمامًا، أم يغضّ النظر حتى لا يحرج نفسه ويحرجني... حسنًا! لكن كيف كان وديع يفسِّر وجود المال معنا باستمرار. ماذا كان يقول لنفسه وأنا أدفع الإيجار آخر كلّ شهر، وأشتري كلّ حاجيّات البيت وأقدِّم له الهدايا، كيف كان يمكن أن أغطّي كلّ هذه المصاريف من المبلغ البسيط الذي حملناه معنا من بيروت، والذي نفد بعد أقلّ من شهرين؟!

معقول؟! وهل بالفعل لم يرني حين دخل البار مع الفتاة الآسيويّة «كاتي» في آخر الليل؟! هل فعلاً لم يرني وأنا بصحبة الضابط الليبيّ، طاولتنا على بعد أمتار قليلة من البار، حيث جلس مع كاتي في كرة الضوء الحمراء بين الباب والصالة؟ هل فعلاً صدّق مزاجي لمّا سألني عن الكدمة الزرقاء في زندي، وقلت له إنّه ضابط ليبي أخرجُ معه من حين لآخر، وهو ذو مزاج متوحِّش وشهوة شبه حيوانيّة، قرصني من زندي الأبيض البضّ وفي إليتي أيضًا. لم يعلِّق بكلمة على هذا المزاح السمج، ولم ينظر إلى إليتي حين رفعت فستاني. ولم يضحك.

لم يكن وديع ساذجًا. هل كان ساذجًا إلى هذا الحدّ؟ صحيح أنّه أقلّ ذكاءً ممّا كان يعتقد عن نفسه، لكنّ ذهنه المتّقد وحدسه المسنون كنصل أنقذاه في الماضي من أخطر الفخاخ والمطبّات، وجعلاه يتحسّب للأمور قبل أن تقع. كان ذكيًّا بالفعل، وجمع مالاً كثيرًا نسبة إلى وضعه... ولم يخطئ مرَّة في فهم البشر واستبطان نواياهم وقدراتهم الحقيقيّة. تقريبًا ولا مرّة.

كم تغيّر منذ غادرنا البلاد!

أم تُراني أنا التي تغيّرت.. كبرتُ بسرعة وفي زمن قصير. رأيتُ العالم واختلطت بالناس. فتحتُ عينيّ على أمور كثيرة و... بقيت أحبّه... يُخيّل إليّ أنّني أحببته أكثر بعد أن غادرنا البلاد، ولو بشكل مختلف. هناك لم يكن حبّي له صعبًا أو يتطلّب التضحيات. وهناك تفتّح جسمي على ملامسة جسمه فقط، ونمت شهوتي وكبرت وتدرّبت على دليل شهوته. حين كانت لذّتي تنفجر في كامل جسمي وأصرخ لها، وكان وديع يفخر بنفسه وبذكورته، كنت أمازحه بالقول إنّي لا أعرف عمق لذّتي وقوّتها الحقيقيين لأنّي لا أعرف غيره. وربّما شعرت بأعمق وأقوى منها مع رجل آخر... وكنت أمازحه قائلة إنّ المعرفة بالمقارنة، وإنّي، لأنّي لم أعرف عضوًا جنسيًّا غير عضوه، لا أستطيع تقدير جماله أو بشاعته، تخمين قوّته، صلابته، طوله أو غلظته. كان وديع يضحك ضحكة صفراء، ويقول إذهبي وقارني إذن.. وستعودين معتذرة تائبة فرحة بما تملكين.

لم أعد معتذرة تائبة، لكنّي بقيت أحبّه. وربّما أكثر من الماضي، إذ كانت الأمور أكثر سهولة وبساطة في ما قبل.

ألم يكن وديع يراني أخرج كلّ ليلة بلباس بنات البارات، أم أنّه كان يعرف كلّ شيء ولا يريد أن يسأل حتى لا يتحمّل تبعات تضحياتي الكبيرة تلك، لا يريد أن يحمل جميلاً؟!

أم تراه كان يستغلّني مدّعيًا الجهل.

معقول أنّه لم ير كيف تغيّر ثدياي اللذان كانا ثقيلين يهبطان، رغم سنيّ الشباب، حتى معدتي، وكيف نهضا صغيرين مكوّرين بعد عمليّة التجميل... ألم يتساءل لماذا أشتكي من الألم، وأُبعده عنهما طيلة

أسابيع متمنطقة بذلك السوتيان العجيب من النحر حتى الخصر؟ معقول أنّه لن ير شيئًا؟ أم تراه فسّر ذلك كضرورة للشغل، كي أكون أجمل وأكثر رواجًا وثمنًا في زحمة التنافس بين مضيفات البارات، وهو يعرف بعضهنّ. ألم أره مع كاتي؟

... ولماذا لا يكون كلّ هذا حبًّا. من أجله، وحتى لا ينقصه شيء أو يذلّه أحد أو حاجة!؟

مستحيل. مستحيل. هل عشت كلّ حياتي مع رجل لا يراني، مع رجل لا أعرفه ولا يعرفني؟

كان يحدس قبل ساعات لحظة تأتيني العادة الشهريّة. يعرف قبل أيّام أنّي سأُصاب بالزكام... يعرف قبل الموسم أنّ الفريز هو ما أتشهّاه في حيرتي، ممّا يعنّ على بالي، وليس أيّة فاكهة أخرى.

كنت أعرف قبل اقترابه من بوّابة البناية أنّه عاد، وأسمع قبل وصوله إلى باب بيتنا في الطابق الأرضي خربشة أظافره على الزجاج المحجّر. أعرف إن كان عليّ هذه الليلة أن أستغرق في تقبيله، أو أن أفتح فخذيّ وآخذه فورًا في داخلي.

أيّة حيرة. أيّة حيرة أغرق فيها الآن؟!

بتّ أسمع كلّ ما يُقال. كلّ ما يُروَّج ويُروى حول اختفائه. أسمعه باهتمام كبير، لكنّي لا أصدِّق شيئًا. أريد من كلّ قلبي أن أصدِّق. لكنّي لا أصدِّق شيئًا.

هناك من قال إنَّه هرب من تحقيقات القبارصة، إذ كان مسؤولاً ضالعًا في عمليّات تهريب السلاح والمتاجرة به. ومنهم من قال إنَّه إنّما اكتشف كلّ ذلك فجأة وبعد فوات الأوان، إنّه لم يكن يعرف شيئًا

قبل التحقيقات. يوقّع فقط، ويمشي الخيلاء كما تمشي الديكة على تلال القمامة. وحين فهم اللعبة، هرب دون أن يترك خبرًا أو علمًا عند أحد.

ومنهم من قال إنّ تزوير حسابات الشركة وأوراقها وعمليّات السرقة كانت تجري بالتآمر معه، إذ هي كلّها تحمل توقيعه، لكنّه لم يكن داريًا بدرجة خطورتها. ومنهم من قال إنّه لم يكن يعرف شيئًا عن عالم الحسابات برمّته، وإنّ المدير الجديد إنَّما قرَّبه ليمسح به خراه، لأنّ وديع أهبل. اعتقد أنّ المعلِّم يحبّه لخصاله وحسناته التي لا تُحصى، النادرة وغير الموجودة في خلق سواه.

ومنهم من قال إنّ طارق نفسه هو من هرّبه. دبّرا كلّ شيء معًا بعناية. هرّبا مبلغًا هائلاً من المال، لا أحد يعرف إلى أين. وإنّ المعلِّم الصغير لن يلبث هو الآخر أن يختفي مثل وديع ليتقاسما الثروة معًا. لكنّ المعلِّم الكبير، يُقال، عرف بكلّ شيء وسيقبض الأنتربول على وديع، ويلحق به المعلِّم الصغير إلى الحبس...

حتى الضابط الليبيّ، حين عاد إلى ليماسول، كانت له روايته عن اختفاء وديع. قال لي بصوت منخفض وبثقة كبيرة إنّ استخبارات بلاده كشفت الحكاية كاملةً، لكنّه لا يستطيع أن يخدمني في شيء. فقد فات الأوان، وخرجت المسائل عن الإطار الذي كان يمكن استدراكها به واحتواؤها و... قال إنّ صديقًا قديمًا لوديع، كان يُعتقد أنّه أُعدم من قبل الشباب في بيروت بعد أن أحاطت به الشكوك، ثم ثبت بعد التحقيق أنّه عميل لإسرائيل: صديق قديم، تبيّن أنّ أمّه يهوديّة، نجح في النفاذ إلى منطقة لحد في الشريط الحدودي ومنها إلى إسرائيل... وأنّ وديع المثقل بتهم حقيقيّة وخطيرة، عليّ أن أعترف أنا سامية

بذلك، هو الآن بجانبه، هناك، ويعمل أيضًا في الموساد بتدبير من صديقه القديم.

قلت للضابط الليبيّ إنّي لا أصدّق روايته الخرقاء المثيرة للضحك، وإذن فأنا لن أقدّم له خدمات لقاء روايته، من أيّ نوع كانت تلك الخدمات.

لكن قلبي ينعصر بقوّة، وتطفر الدموع من عينيّ حين أتخيّله، كما روى بعضهم لي عن شهود عيان غامضين قالوا إنّه ينام في جامع في باريس. وإنّه في النهار شرّيد يدور حافيًا مهترئ الثياب قرب محطّة مترو، يقلّب النفايات أمام محلّ مكدونالد برفقة جماعة من البولنديين، قبلوا بحمايته في منطقتهم بعد أن ضربه المشرّدون العرب وطردوه من بينهم، والبولنديُّون هم من طلبوا سيّارة الإسعاف.

تبقى رواية واحدة أفضّلها، ولو أنّها هي الأخرى غير معقولة.

أفضّل الرواية التي تقول إنّه لحق بأيُّوب إلى أميركا الجنوبيّة، إلى البرازيل، أو ربّما الأرجنتين. التي تقول إنَّ أيُّوب لم يُقتل، إنّه نجا من كمين فظيع حيث أُمطر بالرصاص، لكنّه لم يمت. وتقول الرواية إنّ أيُّوب، بعد أن عاد إلى الحياة، خرج رأسًا إلى بيت وديع، أعني إلى بيت أبيه، وعثر على كلّ المال الذي كان وديع يخبّئه في بيت أبيه. كلّ أكداس الدولارات من فئة المئة، والتي كانت مرصوصة جيّدًا في علبة في غرفته لا يشكّ بها أحد...

وأتوقّف قليلاً عند هذه الرواية، إذ كان وديع، قبل اختفائه بمدّة وجيزة، بأسبوعين أو أقلّ بقليل، كان ناداني إلى جانبه بجدِّيَّة غريبة، وقال لي: يا سامية، مهما بحثوا في البيت، أعني في بيت أبي، لن ينفعهم، لن يجدوا شيئًا. لكنْ، عليّ أن أقول لك أين خبّأت المال، فلا

أحد يدري. ربّما عدتِ يومًا إلى البلد من دوني، هذا إن بقيتْ شقّة أبي لم يحتلّها أحد. الدولارات كلّها، موجودة في غرفتي. في علبة ووكمن كرتونيّة زرقاء قديمة. أقول لكِ هذا علّ وعسى. فأنت أحقّ بها، تضمنين حياتك إن حصل لي مكروه، ولأنّي شرّدتك معي واحتملتِ منّي الكثير.

قالها كأنّه يودّعني، لكنّي لم أنتبه. قلت له حسنًا يا وديع. حلّ عنّي قليلاً. قم تمشَّ وأنا سأحضّر العشاء...

حين استعدتُ اعترافاته تلك، شعرت بالغضب. قلت في نفسي إنّها اعترافات كاذبة يريد بها أن يردّ الجميل، واعدًا إيّاي بمكافأة لن أصل إليها أبدًا. هو يعرف تمامًا أنّ الشقّة نُهبت وأنّ المال ذهب أدراج الريح. حتى وإن كان المال، بقدرة قادر، بقي في مخبئه، فعن أيّ مال نتكلّم. عن أيّ ثروة أضمن بها حياتي؟! كم من عشرات الآلاف من الدولارات تستطيع تكديسها ولو مرصوصة جيّدًا داخل علبة ووكمن، وإن كانت كبيرة من الموديل القديم؟

في البلاد، كانت حساباتنا مختلفة. كنّا شبابًا صغارًا وفقراء. كنّا نسمّي ثروة أيّ مبلغ يفوق توقّعنا بامتلاكه، ويفيض عن حاجاتنا القليلة إلى ما لا نحسب أنّ لنا الحقّ به، إلى ما لا نعرف حتى وجه استعماله أو صرفه.

وفي البلاد، كان وديع زعيمًا. زعيمًا قويًّا على رجل واحد، يفرض سلطته على جماعة ومنطقة وأحياء تتلخّص جميعها في الروديو. وفيّ. سخرية مُرّة أشعر بها الآن وأنا أتذكّر كيف كان الروديو يحثّ وديع على بسط زعامته، وعلى توطيد قوّتها، بحيث يصبح وزيرًا أو سياسيًّا نافذًا لحماية مصالحه وتثميرها.

لاعب صغير ومنفرد، في هامش الهامش. لشدّة صغره، لم يشعر اللاعبون بوجوده، لا لحدّة ذكائه في المناورة والتحصّن والتخفّي.

عرفت كلّ ذلك في قبرص، وبقيت أحبّه. بل ربّما ازددت حبًّا لوديع بسبب معرفتي تلك. لا شفقةً بل حبًّا، غرامًا جعلني أستهين بكلّ شيء من أجله. أنا أيضًا ليس لي غيره.

من أجله هو، رفيقي، زوجي، سيِّدي وحبيبي.

لذا، تراني اليوم أفضِّل الرواية الأخيرة.

تلك الرواية التي أتخيّل فيها أيُّوب يفتح علبة الووكمن الكرتونيّة القديمة.

يأخذ الدولارات، يدسّ الأكداس الكثيرة ببطءٍ في كيس ورقيّ... أو بلاستيكيّ. يخرج بهدوء كعادته. ثم يتوجّه رأسًا إلى البرازيل. أو الأرجنتين.. بعيدًا، حيث يقضي الشهور الطويلة في البحث عن وديع. ثم يعثر على صديقه في قبرص.

ثم يركب وديع الباخرة. أو الطائرة. لا يلتفت إلى الوراء ولا يتذكّر أحدًا منّا. لا يفكّر سوى بأيُّوب. يذهب إليه كما يذهب الإنسان إلى لقاء ربِّه. لا يحمل شيئًا. ليس معه شيء. لا حقيبة ولا كيس صغير، أو حتى رغيفًا ناشفًا لطريق السفر الطويل. فقط تذكرة السفر والجواز، ووجه رفيقه الأسمر اللطيف.

أحبّ هكذا أن أتخيّل الأشياء. أن أرى وديع جالسًا بهدوء في قاعة الانتظار، يتابع حركة المسافرين، منتظرًا أن يرى رقم الرحلة، رحلته، مضاءً على لوح الإقلاع.

وداعًا، أقول له في قلبي، وداعًا وديع.

وأنا أعرف تمامًا أنّها رواية مستحيلة.

مكتبة ياسمين

telegram
@yasmeenbook

وديع، الذي تحوّل من تلميذ مجتهد ومهذّب إلى رئيس عصابة من القتلة ومهرّبي المخدِّرات، يتلقّى بدوره تهديدًا، فيترك، برفقة زوجته الجميلة سامية، لبنانَ، والأموالَ التي جمعها. ويستقرّ الزوجان في قبرص. هناك يلتحق بشركة وينجذب إلى مديرها طارق، فيستعيد لذّة الحياة. لكنّه سرعان ما يختفي عن الوجود، لتُكمل سامية الروايةَ عن احتمالاتٍ عديدةٍ لمصير وديع.
سيِّدي وحبيبي مأساة ساخرة ومُلتبسة، عن الاستلاب وخسارة الذات.

هدى بركات: روائيّة لبنانيّة، تُرجمتْ رواياتُها إلى لغاتٍ عديدة، ووصلتْ إلى اللائحة القصيرة لجائزة «مان بوكر إنترناشونال برايز ٢٠١٥» التي تُمنح عن مجمل أعمال الكاتب أو الكاتبة مرّةً كلّ سنتين.
صدرتْ لها عن دار الآداب: **حجر الضحك، حارث المياه، سيّدي وحبيبي، أهل الهوى، ملكوت هذه الأرض.**

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

مكتبة ياسمين